مكتبة
Telegram Network

يوسف آتيلغان

# سيّدة الفندق

"تحفة مذهلة"
ألبرتو مانغويل

ترجمة
بكر صدقي

من الأدب التركي

رواية

دار الساقي

يوسف آتيلغان

# سيّدة الفندق

"تحفة مذهلة"
ألبرتو مانغويل

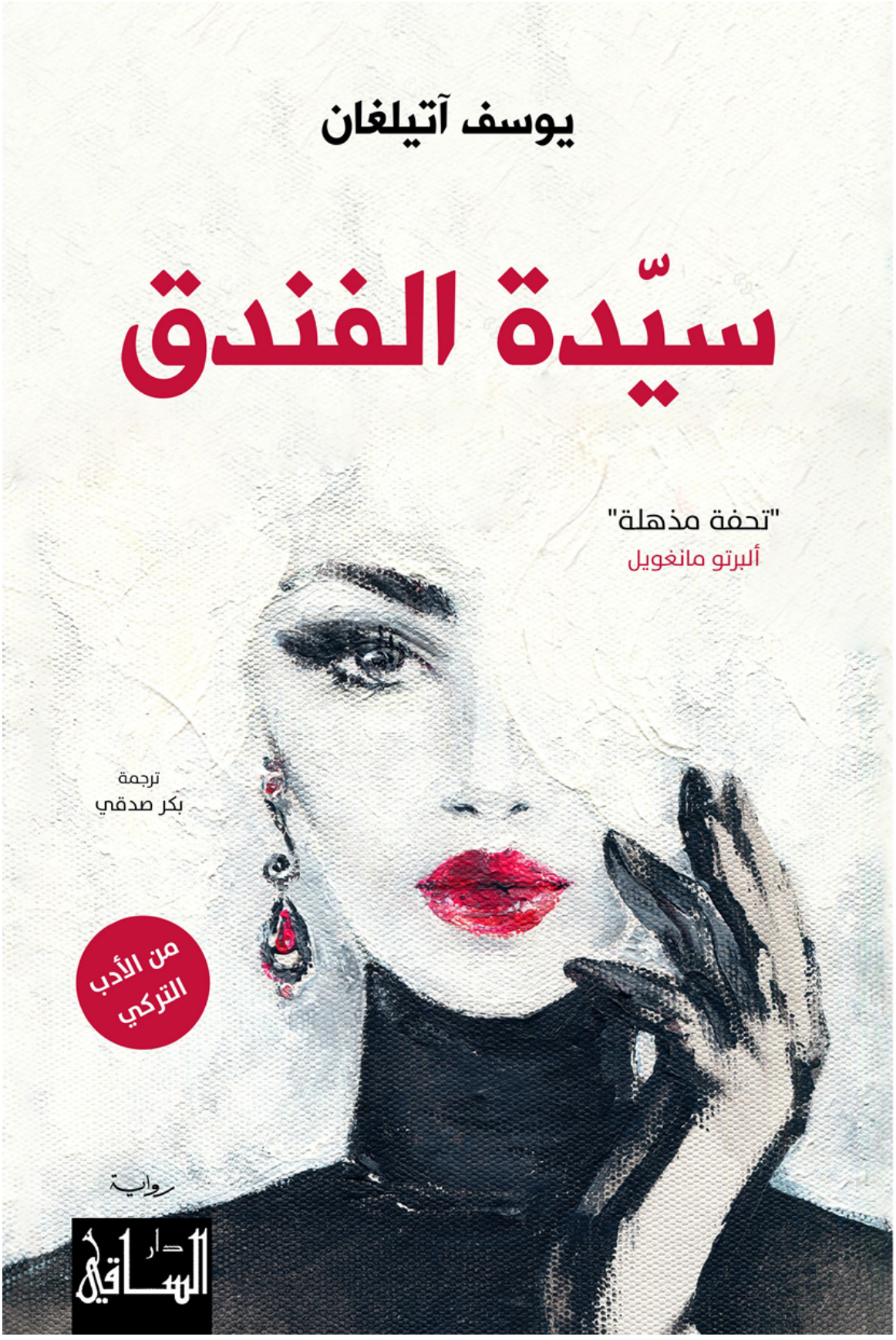

ترجمة
بكر صدقي

من الأدب التركي

رواية

دار الساقي

# سيّدة الفندق

## صدر للمؤلف عن دار الساقي: • المتسكّع

«المكتبة الرقمية العربية»

يوسف آتيلغان

# سيّدة الفندق

ترجمة
بكر صدقي

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخصٍ. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

Originally published in the Turkish language under the title
*Anayurt Oteli* by Yusuf Atilgan
Copyright © 1973, Yusuf Atilgan
.All rights reserved
.No part of this book may be reproduced, in any form without written permission from the publisher
Published by Dar Al-Saqi in conjunction with AnatoliaLit Agency

الطبعة العربية

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠٢١

الطبعة الإلكترونية، ٢٠٢١

ISBN-978-614-03-0240-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١
e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

Dar Al Saqi Dar Al Saqi دار الساقي DarAlSaqi@

دخل زبرجد، مدير فندق "الوطن" الواقع قرب المحطة، إلى الغرفة حيث نزلت تلك المرأة ليلة وصولها في الرحلة التي تأخرت، للقطار القادم من أنقرة. كان ذلك قبل ثلاثة أيام، أي الخميس. أقفل الباب من الداخل، ووضع المفتاح في جيبه. كان الضوء مشتعلاً. أسند ظهره إلى الباب ونظر حوله. كان كل شيء في مكانه كما تركته المرأة: اللحاف المرمي عند جهة القدمين، الشرشف المدعوك، زوج الشحاطات، الكرسي، مصباح القراءة على الخزانة الصغيرة بجانب السرير، سيجارتان في المنفضة النحاسية تم إطفاؤهما قبل انتهائهما، صينية فوقها إبريق شاي ومصفاة وكأس شاي وملعقة وخمس قطع من السكر في طبق صغير (كان قد وضع فيه تلك الليلة ست قطع قالت له حين دخلت الغرفة هل يمكنني أن أشرب الشاي فأعدّ لها الشاي في إبريق يتسع لثلاث كؤوس طرق على الباب وهو يحمل الصينية بيده قالت له ادخل كانت جالسة على طرف السرير وقد خلعت عنها معطفها ترتدي كنزة سوداء ويحيط بعنقها عقد فضي بحلقات كبيرة نظرت إليه وشكرته بلهجة اعتذارية ثم سألته كيف السفر إلى تلك القرية إذن أرجو أن توقظني في الثامنة صباحاً قالت له إنه ليست معها بطاقة هوية كأن ذلك أمر طبيعي...[1] كان قد شم الرائحة حين دخل الغرفة في الصباح بعد رحيلها، فسارع إلى إغلاق الباب. كانت قد تركت الضوء مشتعلاً. نظر إلى المنشفة المعلقة على حاجز السرير المعدني، واللحاف المدفوع إلى جهة القدمين، والشرشف المدعوك، وزوج الشحاطات، والكرسي، ومصباح القراءة فوق الخزانة الصغيرة قرب جهة الرأس، والسيجارتين المطفأتين في المنفضة النحاسية قبل انتهائهما، وإبريق الشاي والمصفاة والكأس فوق الصينية، ونظر إلى قطع السكر في الطبق الصغير وعدّها: "تشرب الشاي بقطعة سكر واحدة". لكن تلك الرائحة قد اختفت. ربما لم تكن موجودة ليلة البارحة أيضاً، مع أن الباب ظل مغلقاً ومقفلاً، والمفتاح في جيبه، فمنذ رحلت تلك المرأة (في ذلك الصباح حين وضعت حقيبة سفرها الجلدية الصغيرة على الأرض وفتحت محفظتها اليدوية وسألته عن مقدار ما تدين له به وقالت احتفظ بالباقي كانت يداها خاليتين من

الخواتم وشكرته على الشاي ثم حملت حقيبتها ورحلت) وهو يدخل هذه الغرفة كل يوم في منتصف الليل، بعدما ينتظر طوال النهار، فيقفل الباب الخارجي للفندق، بعد عودة النزلاء من شؤونهم خارج الفندق، ويدعمه بالترباس الحديدي (حين قرع الباب ففتحه كانت أزرار معطفها مفتوحة وحقيبة السفر بيدها ومحفظتها معلقة إلى كتفها... هل لديكم غرفة شاغرة؟ فجاءها بالمفتاح من لوحة تعليق المفاتيح) ويطفئ ضوء قاعة الاستقبال ثم يدخل الغرفة، له ثلاث ليالٍ وهو يكرر ذلك). المنشفة التي نسيتها فوق حاجز السرير المعدني، الستارة ذات اللون الخمري المزودة بالشراشيب، المرآة الدائرية المعلقة على الحائط فوق المغسلة تزين إطارها أشكال أزهار (فيها رأى وجهه في الصباح الذي غادرت فيه. كان كل شيء في وجهه مشدوداً إلى الأسفل: أطراف حاجبيه، طرفا فمه، أنفه. أطال النظر، مع أنه يحلق شعر وجهه ثلاث مرات كل أسبوع. شاربه الصغير المربع. هذا هو الوجه الذي نظرت إليه المرأة في تلك الليلة (بعدما ترك صينية الشاي وخرج، وأقفل الباب الخارجي وتربسه مرة أخرى، ضبط ساعة المنبه على السادسة، مع أنه يستيقظ في السادسة كل صباح، أطفأ الضوء، مر من أمام الباب، والمنبه في يده، وصعد الدرجات المغلفة بمشمع من غير أن يتسبب في إصدار صرير، ودخل إحدى الغرفتين في العلّيّة (الغرفة الأخرى هي لعاملة الفندق التي تفوح برائحة العرق. هي تنام كثيراً، وفي وقت مبكر، يضطر إلى إيقاظها في الصباح وهو يهزها. في ليالٍ كثيرة يدخل هذه الغرفة ويضطجع بجانبها. كانت تنام بلا سروال داخلي كي لا تستيقظ إذا أراد خلعه عنها، وتترك ساقيها منفرجتين قليلاً. لم تكن تستيقظ حين يداعبها، ولا حتى حين يعلوها. وفي بعض المرات كان يعض ثديها، فتنهره قائلة: "أف يا كلب!" أو: "هشت يا كلب!" وهي مستغرقة في النوم. بعدما ينزل من فوقها كان يمسح عضوها بمنديل) دخل غرفته، وضع المنبه على الخزانة الصغيرة، خلع ثيابه ونام. بعد مدة قصيرة اهتز سريره بفعل مرور سيارة في الشارع، فجلس وتذكر أنه نسي أن يغسل قدميه. فقد اعتاد أن يغسل قدميه كل ليلة قبل النوم. نهض، غسل قدميه، وعاد إلى السرير. جلس على حافته، لوقت، "ماذا لو أنه لم يقفل باب غرفتها؟

ماذا لو فتحه أحد ما بلا قصد؟“ ارتدى ملابسه ثانيةً وخرج، هبط الدرجات بلا صرير، وقف أمام باب غرفة المرأة. كان ثقب المفتاح مظلماً، كتم أنفاسه وأصاخ السمع، وقلبه يخفق. أمسك أكرة الباب الكروية الزلقة، أدارها ببطء شديد إلى اليمين، اختبر الباب بكتفه، فوجده مقفلاً. استعاد تنفسه الطبيعي، عاد فأدار الأكرة، بالبطء نفسه، إلى اليسار ثم تركها. صعد الدرجات متمهلاً، دخل غرفة عاملة الفندق، أشعل الضوء. كان اللحاف ساكناً، والمرأة مضطجعة وقدماها الكبيرتان خارج اللحاف، مسودتان من أسفلهما. أطفأ الضوء وخرج، أغلق الباب. دخل غرفته وتمدد على السرير بثيابه، لم يغفُ طوال الليل، إذ ربما لا يرن المنبه فيبقى نائماً)، وفي الصباح التالي، نحو الثامنة صباحاً، وضع إبريق الشاي على موقد الكحول. حين اقترب من الباب، في تمام الثامنة، انتظر ليمنحها لحظات إضافية من النوم، ثم قرع على الباب. ”نعم، ها أنا أنهض“. خمّر الشاي، أصلح ربطة عنقه وجلس على مقعده. أمامه على الطاولة سجل النزلاء. لا يمكنه الآن أن يسألها عن اسمها وقد آن أوان مغادرتها. أغلقت باب غرفتها وراءها واقتربت بشعرها الأسود ومعطفها البني المفتوح وجوربيها الرماديين وحذائها ذي الكعب المنخفض. سألته، وقد وضعت حقيبة سفرها الجلدية الصغيرة على الأرض وفتحت محفظتها، عن مقدار ما عليها أن تدفعه. ”احتفظ بالباقي“. كانت أصابع يديها بلا خواتم، وقد طلت أظفارها بلون زهري فاتح. ”شكراً جزيلاً، على الشاي أيضاً“. ثم التقطت حقيبة سفرها ورحلت. حين خرجت المرأة من باب الفندق، دخل بعدها ذلك الرجل، وبيده حقيبة سفر جلدية. بدا وجهه كما لو كان بلا عظام. ”هل لديكم غرفة شاغرة؟“ ”نعم“، ”لتكن غرفة جيدة من فضلك. مثلاً الغرفة التي كانت تشغلها المرأة التي غادرت للتو“، ”لم تتخلّ عن غرفتها يا سيدي، ستعود إليها“، ”حسناً، إذن، غرفة أخرى“، أخرج بطاقة هويته ووضعها فوق السجل. ”ما عمل حضرتك؟“ ”اكتب عندك: ضابط متقاعد“. التقط مفتاحاً من اللوح المخصص لتعليق المفاتيح وأعطاه للرجل: ”الغرفة رقم اثنان، الطابق الثاني، على يسار نهاية الدرج“. طوال الأيام الثلاثة المنقضية والرجل يمضي وقت ما بعد الظهر والمساء جالساً في قاعة الاستقبال، يقرأ الصحف والكتب ويدخن، وكلما فتح

باب الفندق، ألقى نظرة سريعة، ولا يصعد إلى غرفته إلا بعد الحادية عشرة ليلاً. ليلة البارحة، حين أفرغ منفضة السجائر ووضعها أمامه، بدا متردداً في السؤال. هذه الليلة سأله. لقد عاد إلى الفندق في وقت متأخر، كان ماراً أمامه فتوقف، كان فمه يفوح برائحة العرق، نظر إلى وجهه وقال: "كان شاربك جميلاً على وجهك". أتراه يسخر منه؟ حين حلق شعر وجهه هذا الصباح لم يكن هناك شارب ليحلقه. ابتسم الرجل. "ألا تخرج تلك المرأة من غرفتها؟" "أي امرأة؟" "تلك التي رأيتها خارجة من الباب حين وصلتُ صباح الجمعة". "تلك المرأة؟ لقد غادرت يا سيدي صباح البارحة". "غادرت؟ إلى أين؟" "لم تخبرني بوجهتها"). منشفة الفندق معلقة على الحائط على يمين المرآة، المصباح المتدلي من طرف أنبوب رصاصي معلق في السقف، صورة معلقة على الجدار الأيمن في إطار سميك لامرأة مضطجعة فوق أريكة واسعة، لها ردفان كبيران ونهدان كبيران، في ثياب شفافة، تقف على جانبيها فتاتان زنجيتان شبه عاريتين تحمل كل واحدة مروحة يدوية. قال طبيب الأسنان عن هذه الصورة: "أترى كم هي متعجرفة محظية المستعمرين هذه!". كان أبوه قد اشترى هذه الصورة، ذات يوم بعيد، من سوق الأشياء المستعملة، وعلقها هنا وقال له: "بعدما أموت، لا تؤجر هذه الغرفة لأي كان. ينبغي وجود غرفة كهذه في كل فندق". ابتعد بظهره عن الباب، وقف أمام الصورة ونظر إليها ملياً. حين عاد ونظر إلى المرآة، سمع حركات ذلك الرجل في الغرفة فوقه. أصاخ السمع فميز أصوات صرير الأرضية الخشبية وتدفق الماء. "لا بد أنه يغسل وجهه. أتراه تقيأ؟" انقطعت الأصوات. نظر إلى المرآة فوجد شاربه في مكانه، ولكن بدا له أن أنفه مرتفع قليلاً إلى الأعلى. استدار ومشى نحو السرير، توقف عند الخزانة الصغيرة، رأى بقعاً قاتمة على غلاف المخدة. لأي غاية سافرت المرأة إلى تلك القرية؟ شعر بوهن في ركبتيه، تمسك بالإطار المعدني للسرير، ثم أسرع في تركه والابتعاد عن السرير. فتح الباب، لم يطفئ الضوء، خرج وأقفله. صعد الدرجات، سمع شخير رجل نائم في الغرفة ذات السريرين في الطابق الثاني. أطفأ الضوء في ممر الطابق الثالث، توقف أمام باب الغرفة

رقم 6 وأصاخ السمع، لم يكن هناك أي صوت. حين وصل إلى العلّيّة رأى عينين تلمعان في الظلام في مستوى قريب من أرض الممر: إنه قط الفندق.

1 حين ينقل الكاتب ما يدور في ذهن زبرجد، كما في هذه الفقرة، فهو يلغي علامات الترقيم ويضع دفق الوعي لبطل الرواية بين قوسين للفصل بين ما يحدث الآن وما يستعيده من الذاكرة. (الهوامش كافة من المترجم)

## البلدة

أو المدينة. إذا كان القطار قادماً إليها من جهة الشرق، وكان الوقت نهاراً، فتباطأ القطار، سيلتفت المسافر الذي كان منهمكاً في الحديث مع مسافر آخر أمامه أو يقرأ الصحيفة، إلى اليسار ليعرف إلى أين وصلت بهم الرحلة، فيقشعر بدنه لمشهد جبل شاهق الارتفاع يبدو كأنه ينقض بصخوره الضخمة على القطار. تتمدد البلدة (أو المدينة)، بمآذن جوامعها وشوارعها العريضة المشجرة، عند سفح هذا الجبل (يعود وجود الشوارع العريضة والحدائق والأراضي الخلاء فيها إلى "الحريق". ففي أوائل سبتمبر 1922، أشعل اليونانيون النار في البلدة قبيل رحيلهم. يقول كبار السن: "لو أن رجلاً واحداً فقط من كل حارة حمل السلاح، ما احترقت البلدة". هرب كثيرون إلى الجبل وشاهدوا الحريق من هناك طوال يوم بليله ونهاره). يمتد أمام البلدة، في جهة الشمال، سهل يغطيه اللونان الأخضر والأصفر. يخترق السهل نهر يتدفق ببطء في الصيف وبسرعة في الشتاء. تنتشر على السهل كروم عنب وحقول قطن وحنطة وقرى كبيرة.

## الفندق

هو بناء من ثلاثة طوابق، كان قديماً من بيوت الوجهاء، يقع أمام الشارع الذي يمتد من الساحة خلف محطة القطار إلى الجادة الرئيسية، نجا من الحريق لأنه في منطقة كان يقطنها أثرياء اليونانيين (حين انتقل رستم بيه من آل كججي إلى إزمير واستقر فيها، بعد الحريق بزمن، حوّل البناء إلى فندق نزولاً

عند إلحاح أحمد أفندي، كاتب النفوس السابق. بمرور الزمن، أَنشئت في كل طابق دورة مياه، وفي كل غرفة مغسلة. وتم تغليف الأرضيات الخشبية لقاعة الاستقبال والممرات والغرف والدرج بمشمعات سميكة. وبمرور السنوات، تشبع المكان بتلك الرائحة الخاصة بفنادق البلدات، فتحول البناء القديم إلى فندق. وفقاً لرواية رستم بيه، أسس الفندق في القرن الماضي جده مالك آغا كججي زادة. كانت ثمة كتابة منقوشة على قطعة الرخام التي تعلو باب الفندق، يخفيها اليوم اللوح المعدني الذي كتب عليه اسم الفندق. كان ثمة شاعر محلي، في ذلك الزمان، يتكسب بضعة قروش من تأريخ ولادة المواليد الجدد لوجهاء البلدة ووفيات موتاهم، كتب على تلك الرخامة تأريخاً غريباً لا يتوافق مع أوزان العروض ولا أوزان الهجاء: واحد اثنان دائرتان

كججي زادة مالك

يعني "واحد، اثنان، دائرتان" (1255) في الأرقام العربية ألفاً ومئتين وخمساً وخمسين[2]. وهو ما يقابله في التقويم الحالي ألفٌ وثماني مئة وتسعٌ وثلاثون). واجهة المبنى المطلة على الجادة الرئيسية مطلية بلون التراب الأحمر. يصعد، بثلاث درجات من الرخام، إلى الباب الخارجي ذي الدرفتين ونصفه الأعلى من زجاج تغطيه قضبان حديدية. تحيط بالباب من الجانبين نافذتان كبيرتان تغطيهما القضبان الحديدية أيضاً. نوافذ الطوابق الأخرى غير مغطاة بالقضبان. تعلو الباب لوحة كبيرة من الصفيح كتب فوقها بالأبيض على أرضية خضراء قاتمة: فندق "الوطن" (ربما جاءت هذه التسمية بتأثير الحماسة الوطنية الخجولة، في أولى سنوات ما بعد التحرير، في تلك البلدات أو المدن التي لم تشهد مقاومة بارزة حين كانت بيد الأعداء). حين تدخل من الباب الخارجي، يواجهك الدرج الصاعد إلى الطابق الثاني بدرابزينه الخشبي المنحوت، وعلى اليسار غرفة صغيرة تستخدم كمخزن مؤونة وفيها موقد للشاي (كانت قديماً واحدة من الغرف ذات السرير الواحد، وقد أقام فيها، في زمن سابق، ابن أحد معارف رستم بيه من القرية التي قصدتها المرأة القادمة من أنقرة بالقطار الذي تأخر عن موعد رحلته، حين درس المرحلتين الإعدادية والثانوية، وكان

في عمر زبرجد نفسه. وفي زمن لاحق، أقام فيها والد زبرجد أثناء أداء الأخير خدمته العسكرية. إنها بالفعل الغرفة المناسبة لمدير الفندق أكثر من أي غرفة أخرى، لكن زبرجد رفض الانتقال إليها بعد وفاة أبيه، فبقي في غرفته السابقة التي اعتاد أن يقرأ فيها، كلما تسنى له الوقت، كتباً يحصل عليها بنظام الإعارة، ويستحضر في ذهنه طالبات الثانوية وهن يؤدين التمارين البدنية ليستمني). بين هذه الغرفة وتجويف تحت الدرج ثمة طاولة مرتفعة عن الأرض بدرجة واحدة، على شكل هلال، ومقعد (كان طبيب الأسنان الضخم الثرثار الذي يقيم في الفندق، يوماً أو يومين كل عام، حين يأتي من بلدته البعيدة من أجل حضور الاجتماع السنوي لأحد الأحزاب السياسية، يطلق على الطاولة اسم "منبر زبرجد أفندي"). بجانبها خزنة النقود المعدنية المتكئة على الجدار فوق منضدة طويلة ضيقة. تحت الدرج باب مزجّج ينفتح على الباحة، وفي قاعة الاستقبال منضدتان منخفضتان مربعتان تحيط بكل منهما أربعة مقاعد مغلفة بجلد أسود، ومصباحان يتدليان من السقف بواسطة أنبوبين معدنيين، وعلى الجدار الأيمن صورة لمصطفى كمال باشا بالطول الكامل. قبل البدء بصعود الدرج ثمة باب كبير على اليمين كتب فوقه الرقم 1. الجدران والأبواب مطلية بطلاء زيتي بلون العاج. على يمين الباب الخارجي، علقت قطعة ورق مقوى مستطيلة كتب فوقها: "يغلق الباب في الثانية عشرة ليلاً". حين تصعد إلى الطابق الثاني تجد على يسارك غرفتين، إحداهما بسريرين والثانية بثلاثة أسرّة، وعلى اليمين دورة المياه وغرفتان، إحداهما بسريرين والثانية بثلاثة أسرّة. الطابق الثالث يكرر النسق نفسه. ثمة ثلاثُ نوافذ تطل على الباحة الخارجية عند منعطف الدرج في الطوابق الثلاثة. في العلية حمّام ومطبخ على اليمين، وغرفتان بسقف مائل على اليسار، نوافذهما الصغيرة تطل على سطح البناء المجاور. خلف الفندق باحة محاطة بجدران حجرية عالية، يمتد على طول جدارها الأيسر رواق مظلل حيث تغسل عاملة الفندق الغسيل مرة كل أسبوع، وتنشر الشراشف والملابس على حبلين سميكين مشدودين على طول الرواق حين يكون الجو ماطراً. ينفتح الباب الحديدي الكبير الصدئ المسودّ على الزقاق الخلفي. على اليمين لصق الجدار ثمة الإسطبل وغرف الحوذي والخدم (عند

أول الشارع الممتد من ساحة المحطة إلى الفندق، هناك قطعة توتياء مقصوصة على شكل سهم مثبتة على جذع شجرة صنوبر، كتب عليها "فندق" باللون الأبيض على خلفية بالأخضر الغامق. لكن السنوات فعلت فعلها، فانخلع أحد مسماري التثبيت بفعل الصدأ، فصار السهم يشير إلى الأرض في الأسفل، ليعطي الانطباع بأن الفندق يقع تحت الأرض).

2 وفقاً للتقويم الهجري. يقابله في التقويم الغريغوري 1839 وهي السنة التي أصدر فيها السلطان عبد المجيد فرمان التنظيمات. سنرى في الرواية تطابقات أخرى مع مفاصل مهمة في تاريخ تركيا، وهو ما يجعل الرواية تقبل بقراءات تاريخية – سياسية عبرت عنها بتلميحات من هذا النوع.

## زبرجد

لا يمكن وصفه بمتوسط القامة، ولا هو بالقصير. وفقاً لمقاييس جسمه المسجلة في بيانات خدمة العلم طوله متر واثنان وستون سنتيمتراً، ووزنه أربعة وخمسون كيلو غرام. هو الآن في الثالثة والثلاثين، لو وقف فوق القبان بثيابه الداخلية، لكان وزنه بين ستة وخمسين كيلو غرام وسبعة وخمسين. بدأت عضلات بطنه ترتخي منذ عامين. رأسه كبير نوعاً ما بالقياس إلى جسمه، له جبهة عريضة، شعره وحاجباه وعيناه وشاربه باللون البني الغامق، وجهه ذابل ومترهل قليلاً لكن ليس بالقدر الذي رآه عليه في المرآة صباح اليوم الذي غادرت فيه المرأة القادمة بقطار أنقرة المتأخر عن موعده. يداه صغيرتان، أظفاره قصيرة، له صدر ضيق وكتفان ضيقان. لقد ولد في شهره السابع. اشتدت آلام المخاض على أمه في مساء الثامن والعشرين من تشرين الثاني 1930. في الأول، تحملت لبعض الوقت، ثم فقدت القدرة على تحمل الألم، فغطت رأسها ونزلت وهي تصرخ من فوق الدرج: "اركض إلى القابلة يا أحمد أفندي". وجد القابلة في بيتها، فعادا سريعاً ومددا الأم على السرير في الغرفة التي على اليمين. قالت الأم للقابلة: "ما زال هناك شهران على موعد الولادة. أتراه سيسقط أيضاً؟" طلبت القابلة من الأب أن يخرج ويسخن ماءً. "أقفلت الباب الخارجي، وضعت الماء على الموقد، سمعت صراخها مرتين. من شق الباب، طلبت القابلة الماء وأخبرتني أن لدي ابن، ثم دعتني للدخول.

شيء بحجم اليد حملته على راحة يدها ملفوفاً في قماط وقالت: ’يستحق أن يلف في القطن ويحفظ في صندوق اللؤلؤ، ليكن اسمه زبرجد‘. همست الاسم فوراً في أذنه“. هكذا أطلق على الطفل هذا الاسم غير الشائع. في تلك الليلة، كان في الفندق أربعة نزلاء جاؤوا من إحدى البلدات لحضور محاكمة قريب لهم يحاكم أمام محكمة الجنايات. لدى عودتهم من تناول طعام العشاء شد كل منهم على يد أحمد أفندي مهنئاً وتمنوا للوليد العمر الطويل.

حين كان أبواه على قيد الحياة، كانا يعيّرانه، من حين إلى آخر، بولادته على سبعة أشهر:

1) صباحاً. يستعد للذهاب إلى المدرسة. يهبط إلى قاعة الاستقبال. أبوه يفرغ مدفأة الفحم التي كانت تستعمل في ذلك الزمان من الرماد.

زبرجد: هلا أعطيتني خمسة وعشرين قرشاً يا أبي؟

الأب: من أجل ماذا؟

زبرجد: سأشتري دفتراً.

يفرغ الأب الرماد المتجمع في الرفش في دلو، ثم يقحم الرفش من جديد في فتحة المدفأة.

زبرجد: هيا يا بابا، لقد تأخرت.

الأب: لا تتذمر يا ابني، انتظر لأنتهي من هذا الرماد. كيف تحملت الانتظار سبعة أشهر في بطن أمك؟

2) يعود ظهراً من المدرسة. يصعد إلى الطابق الأعلى. أمه في المطبخ تفرم الخس في صحن. القدر على موقد الكاز.

زبرجد: أنا جائع.

الأم: سينضج الطعام بعد قليل. اصبر قليلاً. يا له من صبي! حتى في بطني لم يصبر تسعة أشهر.

(إذا كان في تلك الولادة نفاد صبر حقاً، من الممكن نسبه إلى الجنين كما يمكن نسبه إلى الأم أيضاً. يبدو الاحتمال الثاني أقرب إلى المنطق، فلا يعقل أن نتوقع من جنين في بطن أمه تصرفات شخص وُلد ونما، في حين أن امرأة حملت في الرابعة والأربعين يحتمل أن تفتقد إلى الصبر في انتظار الوضع،

خاصة أنها أجهضت ثلاثة أجنة سابقاً، أحدهما بعد شهرين، والثاني بعد شهرين ونصف، والثالث بعد ثلاثة أشهر. رغم ذلك، كان اتهامهما غير العادل لزبرجد بقلة الصبر قد أثر فيه تأثيراً إيجابياً. فقد صار بمرور السنوات إنساناً صبوراً راجح العقل).

في الصيف التالي على انتهائه من مرحلة المدرسة الابتدائية، تم ختانه. وفي الصيف نفسه، ماتت أمه. لم يسجله أبوه في المدرسة الإعدادية، وأدارا الفندق معاً لثماني سنوات إلى حين التحاقه بالخدمة العسكرية. بعد شهرين من انتهائه من الخدمة مات أبوه، كأنه انتظر عودة ابنه ليموت، كي لا يقع الفندق في أيدٍ غريبة. كان في الثالثة والستين حين وافاه الموت، ذات صباح ربيعي، جالساً وراء طاولة المكتب المرتفعة ذات شكل الهلال. جيء بمن يحضرون النعش للدفن، فغسلوه في باحة الفندق. سأله إمام الجامع، عند القبر، عن اسم جدته، فقال إنه لا يعرفه. لم يختلق اسماً وهمياً لأم أبيه كي لا تحدث أي اختلاطات هنا أو في السماء. أحنى رأسه واحمر خجلاً. فقال له الإمام: "لا بأس بذلك يا بنيّ، لنا جميعاً أمّ واحدة".

وصلت البرقية إلى رستم بيه في ذلك المساء، فجاء في صباح اليوم التالي. قدم تعازيه واستلم الحساب المتراكم، وقال لزبرجد قبل أن يغادر: "الفندق في عهدتك، عليك أن تأتي بخادمة". سأله زبرجد هل يعرف اسم جدته، فأجابه رستم بيه: "لا أعرفه، لم لا تبحث عنه في بطاقة هويته؟" فقال زبرجد إنه بحث عن الهوية في جيوب ملابسه وفي خزنة الفندق، فلم يجدها.

## عاملة الفندق

شعرها كستنائي، عيناها قاتمتا الزرقة، وجهها متطاول، أرنبة أنفها مرتفعة إلى الأعلى، فمها واسع قليلاً، أسنانها بارزة بعض الشيء، شفتاها ممتلئتان. متوسطة القامة بجسم ممتلئ، وساقين مقوستين بصورة طفيفة. في نحو الخامسة والثلاثين. جاء بها من إحدى القرى البعيدة، قبل عشر سنوات، رجل قال إنه خالها، تحمل بقجة ملابسها. قال: "أخبرني رجب آغا أنكم بحاجة إلى

امرأة“. جرت بينهما مساومة على أجورها الشهرية، فاتفقا. طلب من المرأة الصعود إلى الطابق الأعلى، ودعا الرجل إلى شرب كأس من الشاي. أخبره الرجل، أثناء شرب الشاي، أن أبوا المرأة قد ماتا وهي صغيرة، فاعتنى بها مع زوجته في بيته. زوّجاها حين بلغت السابعة عشرة. في الصباح التالي على ليلة الزفاف، أعادها زوجها إلى البيت بدعوى أنها فاقدة عذريتها. ”قلنا لها يا عاهرة من الذي أفقدك عذريتك؟ قالت إنها لا تعرف. ضربناها فلم تعترف. قالت زوجتي كفى يا رجل، وماذا إذا اعترفت“. بعد خمس سنوات زوجوها برجل من إحدى القرى القريبة لديه ثلاثة أطفال ماتت أمهم. أعادها الرجل قبل انقضاء ثلاثة أشهر قائلاً إنها تنام كثيراً. ”نعم هي كثيرة النوم لكنها تشتغل جيداً. لا راحة للمرأة المطلقة في القرية خاصة وقد ثبت أنها لا تنجب. كل الرجال يفتلون شواربهم أمامها، سواء كانوا عزاباً أم متزوجين، ويتحيّنون الفرص. قبل أيام أخبرنا رجب آغا بشأن العمل في الفندق، وها قد أحضرناها إليكم. آن أوان الرحيل، عن إذنك...“. نهض واقفاً وصرخ باتجاه الأعلى: ”يا زينب، أنا راحل. ألن تقبّلي يدي يا بنت؟“ لا جواب. هز رأسه مودعاً وانصرف. صعد زبرجد إلى طابق العلّيّة فلم تكن المرأة هناك. بحث عنها في الطوابق الأخرى، فوجدها في الغرفة رقم 2 وقد تركت بقجتها وسط الغرفة واستغرقت في النوم على السرير. أيقظها صباح اليوم التالي. سرعان ما تعلمت العناية بأعمال الفندق. تغطّي شعرها دائماً، ترتب الأسرّة، تمسح الأرض، تزيل الغبار، تطهو الطعام كل يوم، تغسل الغسيل أيام الأحد، تخاطب زبرجد بـ”آغا“. لا تتكلم كثيراً. مرةً، في وقت مبكر من بداية عملها في الفندق، وكانت تمسح الدرج، سألت زبوناً قروياً كان نازلاً من الطابق الثالث: ”هل تعرف قرية سندلّي يا خال؟“ ”وكيف لا أعرفها؟“ ”جالق علي هو خالي“. يأتي خالها بضع مرات في السنة، يحضر كيساً من الشنكليش، يثرثر لبعض الوقت، يأخذ أجورها المتراكمة وينصرف. كان يسألها: ”هل أعطي أجورك لخالك؟“ فترد عليه بالموافقة. كان الرجل يحاسبه بدقة: ”خمسة أمتار من القماش القطني مع تكاليف الخياطة، عباءة صوفية...“. ”ولمَ العباءة الصوفية، ألم تُحضر معها من القرية عباءة قطنية؟“ لم يعد إلى الظهور منذ ست سنوات (ذات مرة، وكان قد مضى أسبوع على

التحاقها بالعمل، كانت تمسح قاعة الاستقبال بعد الظهر، وكان زبرجد جالساً في مقعده يقرأ صحيفة. حانت منه التفاتة نحوها، فرآها منحنية وركبتاها على الأرض، وقد برز فخذاها وردفاها من تحت سروالها الطويل المشدود، تتحرك وهي تمسح الأرض أو تتراجع إلى الوراء على ركبتيها، فيتحرك ردفاها صعوداً وهبوطاً. عاد بنظراته إلى الصحيفة، لكن المرأة باتت له منذ تلك اللحظة أنثى شابة تتحرك في أنحاء الفندق نهاراً، وتنام في الغرفة الملاصقة لغرفته ليلاً. كان زبرجد يتوقف، في طريقه إلى غرفته للنوم، أمام باب غرفتها، ثم يتقلب في سريره مؤرقاً. كان يرى في أحلامه تلك المرأة الطويلة في مبغى المدينة البعيدة التي أدى فيها خدمته العسكرية. كان يختلط في أحلامه خيالا المرأتين. حين يدخل غرفتها الصغيرة ذات السقف المائل في الصباح ليوقظها كان يشم رائحة ثقيلة. فكان يفتح النافذة ويقف بجوار السرير، يمسكها من كتفيها ويهزها، ويلامس ثدييها متظاهراً أن ذلك قد حدث بغير قصد. وفي إحدى الليالي، نهض من سريره بعدما كان قد تمدد عليه لينام، دخل الغرفة المجاورة، أشعل الضوء، فرآها نائمة بلا غطاء بسبب حرارة الطقس، وقد انحسر قميصها. أغلق الباب واقترب من السرير. فك أزرار قميصها وأمسك بنهديها الممتلئين المشدودين. هزها فلم تستيقظ. قالت في نومها: "أهذا أنت يا خالي؟" هزها مرة أخرى: "استيقظي يا بنت!" فتحت عينيها واستقامت في السرير: "ها أنا أنهض يا آغا". "لا تنهضي، أفسحي لي بجانبك". تحركت مفسحة مكاناً لزبرجد بجانبها، نظرت إلى صدره العاري وإلى الانتصاب الظاهر أمامه، ثم أدارت له ظهرها ونامت. اندس بجانبها، قلبها على ظهرها. أغلقت المرأة عينيها. خلّصها من سروالها الداخلي بصعوبة ورماه بعيداً. رأى الشعر. انقض فوقها وامتلكها وهو يلهث ويئن. نهض عنها بعد قليل، وكانت المرأة مضطجعة بطولها. انحنى عليها فوجدها تتنفس بانتظام).

## المرأة التي وصلت بقطار أنقرة المتأخر

في نحو السادسة والعشرين من عمرها، طويلة القامة بارزة الصدر، شعرها أسود وعيناها سوداوان، رموشها طويلة، حاجباها خضعا لبعض التحديد، أنفها مدبب، شفتاها رفيعتان، وجهها مشدود أسمر.

## الرجل الذي قال إنه ضابط متقاعد

متوسط الطول ممتلئ الجسم. شعره شائب بمعظمه. عيناه خضراوان، حاجباه كثيفان. وجهه ممتلئ، شفتاه رفيعتان. وفقاً لبطاقة الهوية التي وضعها فوق السجل عند وصوله صباحاً ثم استعادها ظهراً كنيته هي غورغن، اسمه: محمود، اسم الأب: عبد الله، اسم الأم: فاطمة، مكان الولادة: أرزنجان، تاريخ الولادة: ألف وثلاثمئة وسبع وعشرون.

## القط

ذكر، أسود. هو ثاني قط في عهد زبرجد. قبل ثلاث سنوات جاءت فتاة مع أبيها لمشاهدة الآثار القديمة في البلدة، وأقاما ليلتين في الفندق. تلك الفتاة الشابة الطويلة، التي كانت تحتفظ في محفظتها دائماً ببضع حبات من كستناء الحصان، أطلقت عليه اسم "كرامك"، لكن أحداً لا يستخدم هذا الاسم.

## المنشفتان في الغرفة

1) منشفة الفندق. معلقة على المشجب على يمين المرآة. صغيرة بلون أخضر. نقش على إحدى زواياها حرف A مائل قليلاً وحرف O دائري، بينهما نقطة باهتة. نقشهما زبرجد بعدما سُرقت ثلاث مناشف، ليوقف عمليات السرقة. مع ذلك، سرقت تسع مناشف وزوجان من الشحاطات في عهد زبرجد (خلال عشر سنوات)، مقابل سرقة منشفة واحدة في عهد أبيه الذي امتد ثلاثين عاماً. كان الأب قد أمطر الناس بالشتائم واتهمهم جميعاً باللصوصية انطلاقاً من تلك السرقة الوحيدة، في حين أنه يمكن التفكير في

أسباب ارتفاع وتيرة السرقات في الفندق من غير الاستسلام للغضب: أ) من المحتمل أن يكون عدد اللصوص قد ارتفع في السنوات الأخيرة.
ب) من المحتمل أن يكون قد ارتفع عدد أولئك الذين يستمتعون بالتمرد، في كل فرصة متاحة، على أحكام القيمة، كالنزاهة والشرف، في السنوات الأخيرة.
ج) قد يكون في المظهر الخارجي للأب شيء ما يثير خوف اللصوص ويردعهم (لعل هذا هو السبب الأكثر هشاشة. فرستم بيه الذي كان يأتي من إزمير كل بضعة شهور لتحصيل إيرادات الفندق، داعب رأس زبرجد، ذات مرة – كان هذا في السادسة عشرة ولم ينبت شارباه بعد – وقال إنه صورة طبق الأصل عن أبيه!) 2) المنشفة التي نسيت امرأة قطار أنقرة المتأخر أن تأخذها. ملقاة فوق حاجز السرير، نصفها فوق اللحاف. خطوطها السوداء رفيعة، خطوطها الصفراء والحمراء سميكة.

## الإثنين

استيقظ. كانت الغرفة غارقة في عتمة الغسق. مد يده إلى الصندوق قرب سريره والتقط ساعة الجيب من ماركة Omega عالية الجودة التي كان قد أعطاها لأبيه، حين كان هذا يعمل كاتباً في دائرة النفوس، صديقٌ له، تسديداً لدينه البالغ ليرتين ذهبيتين، ونظر إليها على الضوء الشحيح المتسرب من النافذة: إنها السادسة إلا ربعاً. عبّأها وأعادها إلى مكانها. كان سرواله الداخلي منتفخاً من الأمام. كبس عليه بيده اليسرى. استقام جالساً. شم قميصه، ونزل عن السرير. وضع إبريق الماء على موقد الكاز قبل أن يتجه إلى دورة المياه. خرج منها فاغتسل ونشّف، التفّ بالمنشفة وعاد إلى الغرفة. أخرج ملابس داخلية نظيفة من الصندوق ولبسها. مشّط شعره أمام المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط. كان شاربه في مكانه. دسّ الساعة في جيب سترته وفتح النافذة. رتّب سريره. ترك جواربه ومنشفة الحمام في الحمام. دخل غرفة عاملة الفندق. فتح النافذة وأيقظها.

حين هبط إلى الأسفل رفع ترباس الباب الخارجي، أخرج المفتاح من جيبه الأيسر وفتح قفل الباب. غلَى الماء في الإبريق ذي سعة الكأسين في الغرفة الجانبية. خمّر الشاي. أعد فطوره فوق صينية. نحو السابعة كان يتناول فطوره فوق طاولة المكتب. كان يشرب الشاي بقطعة سكر واحدة. ثمة أصوات قادمة من فوق: طقطقات وصرير. هبط الدرجات قروي متوسط العمر له شاربان كبيران. كان قد سأله مساء البارحة، فأجابه الرجل بأنه ليس من القرية التي سأل عنها.

- بارك الله طعامك.

- تفضل.

- تسلم. بكم أدين لك؟

دفع الرجل ما استحق عليه وانصرف. كان يأكل بلا رغبة. شرب كأساً ثانية من الشاي ورفع الصينية. فرشى أسنانه وعاد إلى مكانه. أشعل سيجارة. له ثلاثة أيام وهو يدخن بضع سجائر ولا يسحب الدخان إلى رئتيه. ترى، هل دخن الجمعة أيضاً؟ كان الجمعة يوماً مشوشاً. بعد الظهر، فيما كان الرجل الذي قال إنه ضابط متقاعد يقرأ صحفه، غفا زبرجد بعض الوقت. حين نقر أحدهم على الطاولة، استيقظ ورفع رأسه. كانت ثمة امرأة شابة ورجل واقفين أمامه يبتسمان. أتراه كان يشخر؟ كان هذان زوجان يعملان في التعليم جاءا إلى الفندق الثلاثاء. قالا إنه تم تعيينهما في ثانوية البلدة، ويريدان الإقامة في الفندق إلى حين العثور على بيت يستأجرانه. "هل أنت مريض؟" "لا، لدي شيء من الصداع فقط".

ترك سيجارته فوق المنفضة، وفتح السجل السميك فوق الطاولة. نقل أسماء النزلاء من "فيش" الليلة السابقة إلى السجل. لم يكن خطه في الكتابة سلساً لكنه مقروء. كانت كل صفحة مقسمة إلى خانات مرقمة من 1 إلى 9، ولكل غرفة عدد من الخانات الفرعية بحسب عدد الأسرّة فيها، ومعدة ليومين. عاد إلى الخميس. ثمة اثنا عشر اسماً. وظهرت غرفة المرأة التي جاءت من أنقرة في رحلة القطار المتأخرة شاغرة. لا أهمية لذلك بالنظر إلى أنه كان يؤجر هذه الغرفة لعدد محدود من المرات في السنة، ولأن أحد سريريها، أو

كليهما، يظهر شاغراً في السجل، مرةً كل أسبوعين، مقابل مجموع الليرات التي ينقل واحدة منها كل يوم من حساب الفندق إلى حسابه الشخصي، حين ينقل كل صباح حصيلة اليوم من درج طاولة المكتب إلى الخزنة. غير أنه كان يرغب في تثبيت مبيت المرأة في الغرفة تلك الليلة. مع ذلك ما كان ليرضى أن يعطيها اسماً كيفما اتفق.

أغلق السجل. كانت سيجارته قد انطفأت. رأى شخصين يهبطان الدرج متجاورين. هما من تجار المواشي، ينزلان في الفندق من حين إلى آخر. لهما شوارب طويلة سوداء. دفعا ما استحق عليهما واستدارا للانصراف، كاد أن يسألهما لكنه تمالك نفسه. أحسن ما يمكن عمله هو الذهاب إلى الحلاق. وهو يضع النقود في درج الطاولة اصطدم الثؤلول البارز في الإصبع الأوسط ليده اليمنى بالخشب. صباح البارحة حاول أن يقتلعه بظفره فأدماه. دفع الدرج. نظر إلى الساعة ذات المنبه فوق الخزنة الحديدية: إنها الثامنة إلا ربعاً. قال الرجل: الثامنة والربع. عبّأ الساعة وأعادها إلى مكانها. رأى عاملة الفندق تهبط الدرجات. إنها في طريقها إلى التسوق. كتب على ورقة: أربع بيضات، علبتا دخان Yenice، أربع علب كبريت. أخرج المحفظة الجلدية العريضة – تذكار من أبيه – من جيبه الداخلي، استل منها ورقة خمسين ليرة أعطاها للعاملة مع قائمة المشتريات.

- اشتري هذه الأشياء من البقالية.

كانت يداها مزرقتين بفعل غسيل البارحة. تراها تعرف؟ لا يظهر عليها أنها تعرف. بعد خروج المرأة نزل الشبان الثلاثة الذين نزلوا في الغرفة رقم 3. بأيديهم حقائب سفر مصنوعة من الخشب. اثنان منهما بشوارب رفيعة، والثالث بلا شوارب. سألهم البارحة فأجابوه بأنهم جاؤوا لأداء الخدمة العسكرية. ضحكوا وهم يتمازحون حول من منهم سيدفع الحساب. ثم دفع كل منهم عن نفسه وانصرفوا.

حين عادت المرأة من البقالية، وضعت بقية النقود وعلبتي السجائر وعلب الكبريت على الطاولة، ثم تركت أحد رغيفي الخبز في الغرفة الجانبية وصعدت الدرجات. ترك زبرجد مقعده ووقف، تمشى لبعض الوقت في قاعة

الاستقبال. في الثامنة والربع، صعد إلى الطابق الثالث ووقف أمام الغرفة رقم 6؛ سمع أصواتاً من الداخل. إنها الغرفة التي يشغلها الزوجان معلما المدرسة. قرع الباب.

- نعم، لقد استيقظنا.

كانت قد قالت له في ذلك الصباح: "نعم، ها أنا أنهض". لن تأتي هذا المساء. نزل إلى قاعة الاستقبال وجلس على مقعده. من النادر أن يأتي زبون لحجز سرير في الصباح. كان ثمة سيارات تعبر في الشارع. حين تمر سيارات كبيرة بسرعة يرتجف الفندق ويُسمع صوت اهتزاز زجاج النوافذ. حين سمع صوت القطار ذي المحرك الذاهب باتجاه أنقرة، كان الزوجان المعلمان يهبطان الدرجات بسرعة. ألقيا عليه تحية الصباح وانصرفا. لم يبقَ فوق غير الرجل الذي قال إنه ضابط متقاعد. لقد اعتاد أن ينزل قرابة الظهر. لسبب لا يعرفه، ظن أن الرجل سيغادر الفندق اليوم.

فتح الباب الخارجي: إنه بائع الصحف. ترك له الصحيفة. اعتاد زبرجد أن يرسل قوائم النزلاء الأسبوعية مع هذا البائع إلى الشرطة أيام الإثنين. فتح الدرج اليمين وجعل يبحث.

- ما رأيك أن تأخذها غداً؟

- حسناً، إلى اللقاء.

- مع السلامة.

تصفح الصحيفة، قرأ لزمن. سراب حزينة اليوم، فهي تشك في الرجل[3]. إنه أحد الأسماء التي كانت العاهرة ذات الكتفين المهدلتين تنتحلها كلما جاءت إلى الفندق مع أحد الرجال. طوى الصحيفة وتركها. أخرج النقود من الدرج. أخرج المفتاح من جيبه الداخلي وفتح به الخزنة. إنها مقسمة إلى قسمين. في القسم العلوي وصول استلام وبطاقتا هوية. وضع النقود في هذا القسم في مظروف كتب عليه "للفندق". التقط ليرة واحدة من الوعاء النحاسي الصغير الذي يحتوي قطع النقود المعدنية، ووضعها في الوعاء النحاسي الآخر في القسم السفلي. كان في القسم السفلي مظروفان كتب على أحدهما

”لزينب“. استل ورقتي خمسمئة ليرة من المظروف الثاني المنتفخ المكتوب عليه ”لي“، أغلق الخزنة وأقفلها، وضع المفتاح في جيبه الداخلي، ثم أخرج محفظته، وضع فيها ورقتي الخمسمئة مع الورقات ذات المئة الموجودة فيها، أغلق المحفظة وأعادها إلى مكانها. جسها من الخارج بيده اليسرى، ثم جلس. أخرج من الجيب الصغير على صدر سترته ورقة الليرات الخمس التي نفحتها له المرأة القادمة من أنقرة برحلة القطار المتأخرة لحظة مغادرتها، بسطها فوق السجل. الواقع أن الورقة النقدية هذه ليست منها. فقد أعطته المرأة ورقتي عشر ليرات وقالت: ”احتفظ بالباقي“. في ذلك الصباح، دخل الغرفة التي غادرتها المرأة، وخرج منها، وبعد مدة نقل النقود من الدرج إلى الخزنة، فاحتفظ لنفسه بهذه الخمسة في تلك اللحظة. طوى ورقة الخمسة وأعادها إلى جيب الصدر.

3 كانت الصحف قديماً تنشر روايات متسلسلة. تلخص هذه الجملة الحلقة التي قرأها زبرجد في هذا اليوم. وهو ما يعكس طبيعة اهتمامات زبرجد.

قرابة الظهر هبط الضابط المتقاعد الدرج. ارتدى تحت سترته المألوفة كنزة خضراء فاتحة. لا يحمل بيده حقيبة السفر. هذا يعني أنه باقٍ. لحظة مروره أمام طاولة زبرجد التفت إليه نصف التفاتة وألقى عليه تحية الصباح. كان يحلق وجهه كل يوم. حين خرج من الفندق أغلق بابه بهدوء.

عند الظهر جاءته عاملة الفندق بطعام غدائه فوق صينية وسلمته المفاتيح.

- هل مسحت الغرفة رقم 2؟

- مسحتها.

- هل الشراشف نظيفة؟

- إنها نظيفة.

علق المفاتيح في أماكنها، كانت الأرقام محفورة فوقها. تناول طعامه بلا شهية. غسل يديه وفمه، وعاد إلى مكانه. أشعل سيجارة وسعل. رأى العاملة قادمة لاستعادة الصينية. كانت تتناول طعامها في المطبخ فوق. وهو يطفئ سيجارته سمع صوت قطار الواحدة وعشر دقائق. نقلت العاملة الغسيل الذي غسلته البارحة من الباحة إلى غرفة المؤونة. حين بدأت كيّ الشراشف كانت

الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف. لا أحد يأتي. نهض ووقف في باب الغرفة.

- سأخرج لبعض الوقت. إذا سأل أحد عن غرفة شاغرة أخبريه بأنها متوفرة.

- حسناً.

تلفّت حوله، فرأى كل شيء في مكانه. فتح الباب وخرج. كان الطقس جيداً. في السماء عدد قليل من الغيوم المتفرقة. مشى باتجاه السوق. طبعاً لا يمكنه الذهاب إلى الحلاق في شارع المحطة، فليس اليوم موعده. كان هذا الحلاق يرسل أجيره إلى الفندق، مرة كل أربعة أسابيع، بعد ظهر الخميس، ليدعوه إلى دكان الحلاقة لحلاقة شعره، وذلك كي لا ينتظر الدور هناك. أضف إلى ذلك أنه لو قصد هذا الحلاق الذي يعرفه وطلب منه أن يزيل شاربه، سوف يضطر إلى سماع ركام من الكلام هو بغنى عنه. سوف يذهب إلى أحد الحلاقين على الشارع الرئيسي القريب من السوق. قليلاً ما يخرج من الفندق. لولا وضع استثنائي كالذي يمر به الآن، كان يقصد الخياط مرة في السنة، أو مرة كل سنتين، ويذهب مرة كل ستة أشهر إلى حمام السوق ليحصل على الفرك بكيس التفريك، وإلى الحلاق مرة كل أربعة أسابيع، وإلى مكتب البريد مرة كل شهر ليرسل المردود المالي للفندق إلى فاروق كججي الذي استقر في إسطنبول. كما كان يودع ضريبة دخل الفندق كل سنة، لكنه لا يخرج خصيصاً لذلك. فقد كان يودع الضريبة في إحدى المرات التي يذهب فيها إلى مكتب البريد. كلما خرج من الفندق، شعر بالقلق كأن الفندق سيتعرض في غيابه لأمر خطير، خاصة حين يذهب إلى حمّام السوق. الآن أيضاً يمشي بسرعة. ولهذا سبب إضافي...

- مرحباً. إلى أين؟

كان هذا الضابط المتقاعد عائداً إلى الفندق بعدما اشترى صحفه.

- إلى السوق.

لم يتوقف. مرّ أمام غابة الصنوبر والثانوية حتى بلغ الشارع الرئيسي. الأراضي الواسعة تمتلئ عاماً بعد عام بالأبنية المرتفعة. كان هناك من يدخلون البنوك ومتاجر بيع الملبوسات ويخرجون منها. رأى مقعدين فارغين من

المقاعد الثلاثة في صالون الحلاقة الواقع عند زاوية شارع المطبعة. حين دخل، نهض الحلاق ذو الشاربين الشائبين عن كرسيه ورحّب به. جلس على المقعد الذي أداره له الحلاق، نظر في المرآة، رأى شاربه الصغير المقطوش ذا الشكل المربع. لف الحلاق ملاءةً حول عنقه، وبدأ حلاقة شعره.

- هل حضرتك من هنا؟

- لا، جئت في زيارة عمل.

- أتريدني أن أقصر لك شعرك؟

- لا.

كان أجيرٌ شاب يقف بجوارهم يراقب العمل. نطق الحلاق بكلام لم يفهمه زبرجد. ثم أغلق عينيه حين أرجع الحلاق رأسه إلى الوراء وأرغى صابون الحلاقة على وجهه. تحركت شفرة الحلاقة على خديه وعنقه وذقنه وصولاً إلى شفته العليا.

- أزل شاربي أيضاً.

ضحك الحلاق وقال له: "أنت تحب المزاح".

أمسك أنفه بإصبعين من أصابعه وحلق الشعر فوق شفته العليا. حين فتح عينيه لم يكن هناك شارب. بدا له كأن أنفه وطرفي حاجبيه وطرفي فمه مرفوعة إلى الأعلى. غسل له الحلاق وجهه في المغسلة التي أمامه، ثم جففه، ومد يده إلى علبة.

- لا أريد بودرة.

نهض عن مقعد الحلاقة. نفض له الأجير كتفيه وياقة سترته بفرشاة. أخرج ورقة الليرات الخمس من جيب صدر السترة وأعطاها للحلاق قائلاً: "احتفظ بالباقي".

بعد نصف ساعة كان داخل متجر لبيع الملبوسات الرجالية حيث ساعده بائع شاب وسيم ذو ابتسامة عريضة وروح مرحة في اختيار بنطلون أسود، وكنزة زرقاء فاتحة بياقة مغلقة، وسترة سوداء بثلاثة أزرار، ارتداها في ركن مخصص للقياس مفصول بحاجز أمام مرآة طويلة ضيقة، ونقل محتويات جيوب سترته القديمة إلى جيوب السترة الجديدة. فوضع مفتاح الغرفة التي شغلتها المرأة

القادمة من أنقرة برحلة القطار المتأخرة، مع منديله في الجيب الأيمن، ومفتاح الباب الخارجي للفندق وعلبة السجائر وعلبة الكبريت في الجيب الأيسر، ومفتاح الخزنة ومقص الأظفار في الجيب الداخلي. لم يتسع الجيب نفسه لمحفظة نقوده الجلدية العريضة، ربما يمكن إقحامها فيه بشيء من القوة، لكنه لم يستخدم القوة. أخرج منها النقود ودسّها في الجيب الخلفي، أما المحفظة الفارغة، فأعادها إلى الجيب الداخلي للسترة القديمة. نقل قطع النقود المعدنية إلى جيب بنطلونه الأيسر. أخرج الساعة من جيب السترة الداخلية. لم يكن هناك جيب مخصص للساعة في البنطلون، ولن يتسع لها حتى لو وجد. ما العمل بهذا الشأن؟ وضعها في جيبه الأيمن بصورة مؤقتة. ثمة فوق الكرسي رزمة صغيرة فيها كنزة من نمط تلك التي يرتديها بلون أخضر فاتح. نظر في المرآة، شد طرف السترة إلى الأسفل، وخرج من وراء الحاجز. كان البائع الشاب بانتظاره. اقترب منه، رتب له ياقة الكنزة، فكّ الزرين الأعلى والأسفل للسترة، وقال: "جميل. إنها مناسبة لمقاييسكم تماماً. يحسن بكم أن تنتعلوا مع هذه الملابس حذاءً أسود".

- بكم أدين لكم؟

- ادفعوا للصندوق في حين أوضب لكم ملابسكم القديمة.

خرج بعد قليل وتحت إبطه رزمة الملابس، فمرّ أمام بنك، ومتجر حلويات، ومحل خياط، وصيدلية، ودخل متجراً رأى في واجهته الزجاجية صفوفاً من الأحذية. اختار زوجاً أسود من الأحذية بلا رباط، وجده مناسباً لقدميه، فلم يخلعه. لف له البائع حذاءه القديم البني، دفع ثمن ما اشتراه وخرج متأبطاً رزمه. ارتعش على صوت صرير وهو يقطع الشارع إلى الرصيف المقابل. وقفت السيارة على مبعدة قليلة منه. هزّ سائق السيارة رأسه وابتسم. ابتسم زبرجد بدوره واعتذر. وقف المارة فوق الرصيف وابتسموا أيضاً. مشى بخطوات سريعة. كان حادثاً لطيفاً، ولكن ما أسهل أن يموت المرء.

عاد إلى الفندق من الطريق نفسه الذي سلكه في المجيء. حين دخل من الباب التقت نظراته بنظرات الضابط المتقاعد الجالس في ركنه يقرأ الصحف. كانت عاملة الفندق تكوي في الغرفة الجانبية.

- هل جاء أحد؟

- ثلاثة صبيان. وضعوا حقائب سفرهم وانصرفوا.

مشى حريصاً على تجنب النظر إلى الرجل. رأى ثلاث حقائب تحت الدرج. في غرفته، فك الرزم فوق السرير. علق ملابسه في الخزانة الكبيرة. حشا زوجي الحذاء بالورق ووضعهما تحت الخزانة حيث الأحذية الأخرى. علق الكنزة الجديدة ذات اللون الأخضر الفاتح على مشجب الحائط. نظر في المرآة. لقد قال له الحلاق: "أنت تحب المزاح". لم تكن العبارة قطعاً مما يوضح الموقف. لكن المهم هو النتيجة؛ لم يعد لديه شارب. أخرج الساعة من الجيب الداخلي، كانت تقترب من الثالثة والنصف، وضعها على طرف الصندوق. يمكنه الاكتفاء حالياً بالساعة ذات المنبه تحت. طوى الورق ووضعه في الحمّام. بال مطولاً. نزل إلى الأسفل وجلس في مقعده. كان الضابط المتقاعد ينظر إليه. قال له: "ازددتم شباباً".

- شكراً يا سيدي.

التقط الصحيفة من فوق حافة الطاولة وفتحها، فلم تكن لديه رغبة في تبادل الحديث مع الرجل. الحذاء الجديد يلامس مسمار القدم في خنصر قدمه اليمنى. خلع فردتي الحذاء بهدوء وحرّك قدميه. نسي أن يبحث عن مرهم الثآليل. نظر إلى الخنصر، بدا له أنه تقلص حجماً. قالت إن لها في تلك القرية أقرباء. ارتدى حذاءه. كانت عاملة الفندق قد انتهت من كي الغسيل، أغلقت باب الغرفة ومضت باتجاه الدرج، لم تنظر إليه حين مرت أمامه. حين أشعل الضابط المتقاعد سيجارة، أشعل هو أيضاً واحدة. ابتلع ريقه كي لا يسعل. الليلة سيلقي نظرة على المنفضة. الفندق هادئ، من حين إلى آخر يمر مشاة أو سيارات أمام باب الفندق، فيسمع وقع الأقدام وأصوات السيارات، إضافة إلى تكتكة الساعة ذات المنبه.

نحو الخامسة مساءً مدّ يده إلى مفتاح الإنارة على الجدار وأشعل الضوء. تحرك الضابط المتقاعد، فوضع الصحيفة على المنضدة وأمسك الكتاب. كان جلوس الرجل طوال ما بعد الظهر والمساء في قاعة الاستقبال يقلق راحة زبرجد ويحرمه مزايا الوحدة، كأن يتمشى في القاعة من حين إلى آخر كما

اعتاد أن يفعل سابقاً، أو أن ينكش أنفه إذا أحس بالحاجة إلى ذلك، أو أن يميل جانباً ويطلق ضرطة صاخبة، أو أن ينهض واقفاً إذا تعرقت مؤخرته من طول الجلوس ويمسك بيديه إلية البنطلون ويهزه ليهوّي مؤخرته. وقبل قليل حرص على ألّا يصدر صوتاً حين خلع حذاءه ثم انتعله من جديد، ومنع نفسه بصعوبة من السعال بأن بلع ريقه. لم يكن هناك كثير من الزبائن ممن يجلسون في القاعة. كان يحدث أحياناً أن تقيم في الفندق فرق المسرح الجوّال التي تتألف من خمسة ممثلين أو ستة، ليلة واحدة، فيجلسون هنا بعض الوقت، بعد انتهاء العرض، فيتبادلون الحديث في شؤون عملهم وما يكسبونه من نقود، ويتناقشون، ويدخنون السجائر. وكان زبرجد يقدم إليهم الشاي. كان عدد النساء في تلك الفرق لا يتجاوز ممثلتين. في إحدى الليالي، سمع شكوى ممثلة من لعب ثلاثة أدوار في العرض نفسه. هناك أيضاً بعض أعضاء الأحزاب السياسية القادمين من بلدات أخرى لحضور الاجتماع السنوي، فقد كان خمسة أو ستة من هؤلاء يجلسون هنا فيتحدثون ويتناقشون. ويحدث أن يحتد النقاش في بعض الأحيان، ويذكر أحدهم اسم شخص من المقامات العليا، فيسكته آخر وينظرون نحو زبرجد، ثم يواصلون حديثهم همساً. ما كان بإمكانه أن يسمع. بما أن ما يقولونه بالصوت المرتفع لا يعدو الأمور المعروفة، لا بد أن الأمور الخطيرة التي تدور حول إدارة شؤون البلاد كانت في تلك الهمسات التي لا يستطيع زبرجد سماعها. في إحدى المرات، قال لطبيب الأسنان...

فتح الباب، نظرا نحوه، كان الداخل واحداً من تجار المواشي الذين باتوا في الفندق البارحة.

- سنبقى الليلة أيضاً. هل حجز أحد غرفتنا؟

- لا، إنها شاغرة.

نظر إليه وهو يستدير وقال له: "لقد أزلت شاربك".

"كان يثقل عليّ"، قال ضاحكاً.

ثم سأل الزبون بصوت منخفض: "هل كان شاربي موجوداً هذا الصباح؟"

"لم أنتبه"، قال الرجل وانصرف.

من الواضح أنه لن يتمكن من إسدال الستار على موضوع الشارب بسهولة. كان سؤاله نافلاً. حتى لو أجاب الرجل إجابة قطعية، بالنفي أو بالإيجاب على حد سواء، فليس من شأن ذلك إلقاء الضوء على الوضع. استل "فيشاً" من الدرج سجل فيه أسماء تجار الماشية في الغرفة رقم 5. أشعل سيجارة ونظر إلى الرجل. كان يمسك الكتاب بيده اليمنى قريباً من وجهه. واصل مراقبته إلى أن أطفأ السيجارة، ولم يقلب الرجل الصفحة. حين خرج من الفندق ليلة السبت، ألقى زبرجد نظرة على الكتاب، فوجد أنه ليس بالتركية.

حين جاءت عاملة الفندق بطعام المساء، نهض الضابط المتقاعد واقفاً، ألقى الكتاب فوق الصحف وخرج. كان الطعام هو نفسه ما أكله على الغداء، لكنه أكل هذه المرة بشهية مفتوحة. أخذ الصينية بنفسه إلى المطبخ فوق. فقد اعتادت المرأة النوم بعد تقديم الطعام إليه، من غير أن تنتظر انتهاءه. أخرج القط من المطبخ وأغلق بابه. حين نزل إلى الأسفل سمع صوت قطار السادسة وأربعين دقيقة. أفرغ منافض السجائر في سلة النفايات. مشى لبعض الوقت ذهاباً وإياباً بين الدرج والباب الخارجي. وقف أمام باب غرفة المرأة التي جاءت برحلة القطار المتأخرة من أنقرة، وضع يده على أكرة الباب الكروية، حين فتح الباب الخارجي ترك أكرة الباب بسرعة وعاد أدراجه. كان القادمان هما الزوجان العاملان في التعليم. قالت له المرأة ضاحكة: "أنتم أنيقون جداً هذا المساء. هل تنتظرون أحداً؟"

وقال الرجل: "أغراضنا وصلت، سنغادر الفندق غداً. فلأدفع الحساب".

- يمكنكم أن تدفعوا غداً.

- لا، من الأفضل أن أدفع الآن خشية أن نتأخر في الاستيقاظ صباحاً.

أخرج من جيبه الخلفي ورقة خمسمئة ليرة، وضعها فوق السجل. التف زبرجد إلى ما وراء الطاولة، فتح الخزنة، كان سعر المبيت في الغرف ذات الأسرة الكبيرة خمس عشرة ليرة للشخص الواحد، وخمسة وعشرين لشخصين. أعاد بقية الحساب من مظروف الفندق، ثم أقفل الخزنة. مد إليهما مفتاح الغرفة التي يقيمان فيها، أخذته منه المرأة. كانت أظفارها بلا طلاء.

- أرجوكم أيقظونا في الثامنة صباحاً. ليلة هانئة.

- لكم أيضاً.

أثناء صعودهما الدرجات، شبكت المرأة ذراعها بذراع زوجها. كان بيد كل منهما حقيبة جلدية صغيرة. ردفا المرأة مكوران، ساقاها متسقتان. التقط القلم وسجل في "الفيش" اسميهما. اسمها "سعيدة". هو اسم أمه. فوجئ الثلاثاء حين أخبرته المرأة باسمها. ليلة الخميس... فتح الباب ودخل رجلان في منتصف العمر، يعتمران قبعتين، يشبهان القرويين.

- هل لديكم أسرّة؟

- أجل.

حجز لهما إحدى غرف الطابق الثاني ذات الأسرّة الثلاثة، الغرفة رقم 4.

- من أين أنتم؟

"من كاباكلي"، قال واحد منهما.

ليسا من القرية التي تعنيه. أعطاهما مفتاح الغرفة.

- حين تصعدان الدرج، تجدان الغرفة في نهاية الممر على اليمين. الباب الأول على اليمين هو دورة المياه. لا تقفلا باب غرفتكما. فربما أعطي السرير الثالث الفارغ لأحد الزبائن إذا احتاج الأمر.

صعد الرجلان إلى الطابق الأعلى. كان يحدث في بعض الأحيان أن ينام ثلاثة أشخاص لا يعرفون بعضهم بعضاً في الغرفة نفسها. ذات صباح، قبل ثلاث سنوات، حين نزل إلى الأسفل، وجد باب الفندق مفتوحاً. كان أحد الزبائن قد سرق نقود شركائه في الغرفة وساعات يدهم ورحل. كان هذا الحادث من نوع تلك الأحداث الاستثنائية التي يضطر فيها زبرجد إلى الخروج من الفندق. بعد الحادث بعشرة أيام تم استدعاؤه إلى المحكمة بوصفه شاهداً. كاد ألّا يتعرف على ذلك اللص حين سأله عنه القاضي. بدا أنه محطم، لكنه هو. شاب متوسط الطول، أسمر البشرة. وكان يحدث في بعض الأحيان أن يصعد الدرج ليلاً إلى غرفته لينام، فيسمع نزلاء إحدى تلك الغرف الثلاثية يتحدثون بصوت منخفض. تثاءب. نكش الفتحة اليسرى لأنفه بخنصر يده اليسرى، نظر إلى قطعة المخاط الجاف التي أخرجها، ثم مسح إصبعه تحت إبطه عابساً وجهه. سمع صوت القطار ذي المحرك القادم من أنقرة، فنظر إلى الساعة. الليلة

مقدار التأخر قليل. نهض واقفاً، وضع إبريق الشاي على موقد الكحول في الغرفة المجاورة. خمّر الشاي وخرج. دخل رجلان قاعة الاستقبال. عرف أحدهما. كان محامياً في إحدى البلدات. معه رجل مسن يرتدي ملابس محترمة. يحملان حقيبتي سفر. ربما هما قادمان من جلسة في إحدى محاكم أنقرة.

- هل لديكم غرفة بسريرين؟

التقط مفتاحاً من اللوحة وراءه ومده نحوهما.

- الطابق الثالث، الغرفة 9.

كان الرجلان يصعدان الدرج حين وصل تجار الماشية، وجوههم عابسة، أعطاهم المفتاح. ثم جاء الضابط المتقاعد، أغلق باب الفندق بهدوء، واقترب منه.

- هل سأل عني أحد ما؟

- لا يا سيدي.

لم يكن مخموراً. أخذ صحفه وكتابه ومفتاح الغرفة، تمنى لزبرجد ليلة سعيدة وصعد الدرج. هل كان مخطئاً؟ ألم يكن بانتظارها؟ شرب كأسين متلاحقين من الشاي. الساعة تجاوزت العاشرة والنصف. جاء، بعد الحادية عشرة، الشبان الثلاثة الذين حجزوا غرفة في غيابه. سجل أسماءهم، سألهم حين أعطاهم المفتاح. قالوا إنهم جاؤوا من مدينة أفيون لأداء خدمتهم العسكرية، وإنهم ذهبوا إلى السينما تلك الليلة قبل مجيئهم إلى الفندق. أخذوا حقائبهم من تحت الدرج وصعدوا. بعد قليل انقطعت الأصوات القادمة من فوق. أشعل سيجارة، أطفأها في المنفضة قبل انتهائها. لم ينتظر حتى منتصف الليل، فلن يأتي أحد بعد الآن. أقفل الباب الخارجي ووضع التراس، أطفأ الأضواء، أخرج المفتاح من جيبه الأيمن وفتح باب الغرفة رقم 1، دخل وأغلق الباب. كان الضوء مشتعلاً، بقي كل شيء في الغرفة كما تركته المرأة. على يسار السرير مشجب مثبت في الجدار... لأي غاية ذهبت إلى تلك القرية؟ منذ أربعة أيام ومختلف الاحتمالات تدور في رأسه. أكثرها قرباً من الحقيقة هو احتمال أن يكون أخوها قد تم تعيينه معلماً في مدرسة تلك القرية. لن تمكث هناك أكثر

من أسبوع. سوف تأتي، ذات مساء، في قطار السادسة وأربعين دقيقة مساءً، فتقيم هنا ليلة أخرى، في غرفتها. مشى. نظر إلى السيجارتين المطفأتين في المنفضة قبل انتهائهما، لم يكن الأمر واضحاً. مد يده ثم سحبها بسرعة. استدار وخرج من الغرفة. أقفل بابها ووضع المفتاح في جيبه الأيمن. صعد الدرجات من غير أن يصدر صريراً. كانت أنوار أروقة الطوابق مطفأة. وقف أمام باب الغرفة رقم 6 في الطابق الثالث. ثقب المفتاح مظلم، تأتي أصوات خافتة من الداخل. مد رأسه وأصاخ السمع. لقد فعل ذلك ليلة السبت أيضاً. ليلة البارحة لم تكن هناك أصوات. سمع المرأة تتأوه: "أووووه! لا تتركني... أووه!" صوت الرجل مكتوم، فلم يفهم ما كان يقول. وجهه مشدود، فمه نصف مفتوح، عيناه تقلصتا. "نعم، إلى الصباح... أووه لا تتركني، لا تتركني أبداً... أووه... أنا لك...". سمع صريراً من الداخل، فاستقام بسرعة وابتعد، صعد الدرج ببطء. رأى أمامه، على مستوى الأرض، زوجاً من العيون يلتمع في الظلام. إنه قط الفندق. تمسّح بساقه وهو في طريقه إلى الحمّام، أطلق نحوه رفسةً لم تصبه. فتح صنبور الماء وغسل وجهه مطولاً.

## الثلاثاء

استيقظ فوجد الغرفة في عتمة الغسق. التقط الساعة من فوق الصندوق ونظر إليها على الضوء القادم من النافذة: السادسة إلا خمسة. ضبطها وأعادها إلى مكانها. دس ذراعيه تحت اللحاف. كان عضوه الذكري منتصباً وقد خرج من فتحة البيجاما. كبس عليه بيده اليسرى، ونقَفَ رأسه بإصبعه (كانت المرة الأولى لذهابه إلى المبغى في المدينة التي أدى فيها خدمته العسكرية، برفقة العريف خليل. كانا جارين في النوم، ويحتلان الطبقتين السفليين لسريرين عسكريين من طبقتين. في الأشهر الأولى، كانوا يوقظونه في أسوأ توقيت، فيقطعون عليه نومه، من أجل المناوبة الليلية. هو لم يتذمر، لكن خليل صرخ في وجه المساعدين من أجله. تسللا إلى المبغى من النافذة بعدما عبرا الأرض الخلاء الخلفية تجنباً لدوريات الشرطة العسكرية. فتحت النافذة المرتفعة قليلاً

امرأة مسنة، إلى حد ما، ولها أسنان متباعدة. دخل العريف خليل أولاً، ثم شده من ذراعه إلى الأعلى. ثمة، في الصالون، خمس نساء أو ست شبه عاريات بوجوه مصبوغة. قالت واحدة طويلة القامة بصوت حيادي جاف: "آه! لقد جاء جنديي الصغير". أخرى جلست في حضن العريف خليل الذي قال: "اصعد معها إذا أحببت". أحس على الدرج الضيق بردفي المرأة وخفق قلبه. دخلا غرفةً صغيرة. قالت له: "سأوافيك حالاً. تعرَّ واضطجع". خلع ثيابه بسرعة، وجلس على طرف السرير. كان عضوه منتصباً باتجاه سرته. فكر في النهوض وارتداء سرواله الداخلي، لكن المرأة عادت إلى الغرفة وقد لبست قميصاً زهرياً مطرز الحافات يغطي ردفيها، وقد ظهر نصف نهديها الكبيرين. اقتربت من السرير وهي تقول: "ياه! لو أن هذا كبر أكثر قليلاً لفاق طولك").

نهض عن السرير. ذهب إلى الحمام وعاد. بدأ ارتداء ثيابه، وتردد في الاختيار بين الكنزتين، ثم اختار الخضراء الفاتحة. مشط شعره وفتح النافذة. رتّب سريره وخرج. وقف قبل أن يدخل غرفة عاملة الفندق. ليس اليوم يوم الطهو. لا عمل لها اليوم غير ترتيب الغرف. لم يوقظها للمرة الأولى منذ عشر سنوات.

***

ترك صينية فطوره في غرفة المؤونة، ونظّف أسنانه، وخرج من الغرفة. جلس في مقعده، وفتح دفتر السجل، وراح ينقل إليه أسماء نزلاء الليلة السابقة من الفيش اليومي. انتهى من نزلاء الطابق الثاني وانتقل إلى نزلاء الغرفة رقم 6. عليه أن يوقظهم في الثامنة صباحاً. كانت امرأة شابة نضرة تشبه معلمته في الصف الخامس الابتدائي التي لقّبها محيي الدين الكردي بـالجوفاء. اعتاد محيي الدين أن يأتي إلى المدرسة في الصباح بعد انتهائه من بيع الكعك في الشوارع، وكان أكبر تلاميذ الصف سناً. جاء المدير إلى الصف، ذات يوم، وضربه. كان يغيظ زبرجد مردداً: "أم زبرجد ولدت صبِي، الصبي عجن كبِّي". كتب اسم المرأة. من يعلم ما المادة التي تُعلِّمُها في المدرسة وكيف يصغي إليها التلاميذ الذكور البالغون؟ سعيدة... كانت أمه امرأة نحيلة، وقد لدته في

هذا المبنى، في الغرفة التي تحمل الآن الرقم 6. اعتاد أن يقول إن أمه ماتت في النفاس، أما أبوه الذي يمت بصلة قرابة لآل كججي، فتركه عندهم ورحل. ربما كان ابناً غير شرعي لوالد رستم بيه من إحدى اليتيمات. يقال أن هاشم بيه كان يواظب على ملاحقة تلك الشقيات. حتى بعد تجاوزه الستين كان يقرص نهدي أو مؤخرة الخادمة التي تحضر له قهوته وتبيت ليلاً في العلّية مع الخادمة قدرية. كانت الفتاة تتكتم على تحرشاته لكنها صرخت مستنجدة ذات يوم حين طرحها أرضاً وانقض عليها. هرعت الكنة على صوتها أولاً واستنكرت ما يفعله عمها. ثم تفاقم خرفه إلى درجة صار فيها، كلما رأى امرأة، يخرج عضوه الكبير الذابل ويقول لها: "هيا تعالي، ألستِ زوجتي؟" فحجروا عليه في غرفة في الطابق الثالث. ستُحوّل لاحقاً إلى مرحاض، إلى أن مات فيها.

سمع طقطقات خفيفة من فوق. سجل أسماء نزلاء الرقم 9 أيضاً وأغلق الدفتر. كان يحتفظ بدفتر سجل السنوات السابقة في صندوق تحت الدرج، مع بضعة كتب تاريخ سميكة مكتوبة بالأبجدية القديمة لوالده. كان قد علمه الأبجدية القديمة حين أنهى دراسته الابتدائية. "ستتعلمها بسرعة. أنا تعلمت الأبجدية الجديدة في عشرة أيام". كان أبوه كاتب نفوس، فلم يقتادوه إلى العسكرية أثناء سفر برلك. جاء أبوه من أضنة حيث كان يستثمر فندقاً بالإيجار كما قال. انهار الفندق نتيجة زلزال خفيف بعد ظهر أحد الأيام، فمات أبوه وأمه، وأخوه وأخته وكلاهما أصغر منه سناً، تحت الأنقاض، وهو الناجي الوحيد لأنه كان في المدرسة حين حدث الزلزال. فترك الدراسة وأقام بعض الوقت عند عمته وعمل في أحد الفنادق، ثم حصل على وظيفة كاتب في دائرة النفوس. بعد مدة قصيرة على وصوله إلى هنا تعرف إلى رستم بيه حين جاء هذا إلى الدائرة لاستصدار بطاقة هوية لابنته الثالثة. كانا، في بعض الأمسيات، يلعبان طاولة النرد في المقهى. أحد أصدقائه هو من شجعه على الزواج. فقد دُعي، ذات مرة، إلى طعام العشاء في بيت رستم بيه حيث رأته أم زبرجد من شق الباب فوافقت، فتزوجا قبل سنة من وصول اليونانيين. كانت في الثانية والثلاثين وأبوه في الثامنة والعشرين.

في الثامنة، أيقظ المعلم وزوجته المعلمة اللذين نزلا بعد نصف ساعة.

- سنرسل أحداً ليأخذ حقائبنا. أمضينا أسبوعاً جميلاً في فندقكم. نستودعكم الله.

- مع السلامة، يا سيدي.

شد على اليد التي مدها الرجل مودعاً، وتجنب النظر في وجه المرأة حين صافحها. كانت أصابعها سمينة. حين أرخى يدها أخفى يده خلف ظهره. ترى، هل تعرقت راحة يده؟ وضع الرجل على الطاولة ورقة نقدية بقيمة عشر ليرات قائلاً: "لم تضمِّنوا الحساب ثمن الشاي الذي تناولناه البارحة".

كانا قد طلبا منه الشاي صباح الأحد. حين جاءهما به وجدهما جالسين متقابلين حول الطاولة وأمامهما أوراق.

- كان الشاي تقدمة من الفندق، لا أريد مقابلاً له.

- شكراً لك!

نظر إليهما وهما يبتعدان. البارحة في الليل سمع صوت المرأة يقول هامساً: "كم أنا لك". من المؤكد أن هناك نساء غيرها على سطح الأرض يتحدثن إلى أزواجهن بهذه الطريقة. دس يده، خطأً، في جيبه الأيمن يريد إخراج علبة السجائر.

***

بعدما خرج جميع النزلاء باستثناء الضابط المتقاعد، راح يتمشى في قاعة الاستقبال. جاء بائع الصحف، فأخرج قوائم النزلاء من درج المكتب وسلمها له. هكذا، لم يوثّق نزول المرأة القادمة من أنقرة بالقطار المتأخر عن موعده في الفندق ليلة الخميس. لقد أرهق ذهنه بهذا الموضوع بلا مبرر طوال أيام. الحق أن اسمها يمكن أن يكون أي اسم مؤنث، لكن عليها أن تقول ذلك. سوف تأتي، في غضون ثلاثة أيام، وتخبره باسمها. جلس على مقعده. مد يده نحو الصحيفة ثم تراجع. فتح درج المكتب والتقط منه النقود، ثم فتح الخزنة. كان في الطاسة النحاسية في الرف العلوي ليرة واحدة فقط نقلها إلى الطاسة الثانية في الرف السفلي، وبدّل أماكن الطاستين. أخذ خمس عشرة ليرة من النقود التي يحملها في يده ودسها في جيبه الخلفي، ووضع ما تبقى في

مظروف الفندق، ثم أغلق باب الخزنة. سمع وقع خطوات آتية من فوق. في منعطف الدرج، وقفت عاملة الفندق ونظرت عبر النافذة المطلة على الباحة. لم يكن وجهها ظاهراً له.

- ماذا حدث، يا آغا؟

- لا شيء. لم أوقظك هذا الصباح لأنك تعبت كثيراً البارحة. رتبي الغرف، وغيّري شراشف الغرفة رقم 6.

نزلت عاملة الفندق، وأخذت شراشف نظيفة من غرفة المؤونة، وخرجت. حين مرت أمامه، تمهلت للحظة ونظرت إليه، ثم تابعت طريقها نحو الدرج. لعلها تعرف ما حدث. على الأقل بسبب المنديل الذي تركه تحت وسادتها.

***

فُتح الباب، بعد الظهر، وهما جالسان في مكانيهما المعتادين في قاعة الاستقبال يقرآن الصحف (هو لم يكن يقرأ بمعنى الكلمة: ربما أحد العناوين، أو بضعة أسطر لا يفهمها... كانت الصحيفة، بالنسبة إليه، ستارة حاجبة). نظرَا نحو الباب، فرأيا الرجل الذي جاء لينقل الحقائب. التقط المفتاح من اللوح خلفه ورافق الرجل إلى الطابق الأعلى. كانت الغرفة غارقة في الضوء، فالستارة ذات اللون الخمري والشراشيب مفتوحة. هو لم يفتحها بعد مغادرة النزيلين، فلم يطفئ الضوء. قال الرجل وهو يحمل الحقائب إنها "ثقيلة كالرصاص". هبطا الدرج، وفتح باب الفندق من أجل الرجل، وعاد ليجلس في مقعده، وأمسك بالصحيفة. إذا وصلت المرأة في رحلة السادسة وأربعين دقيقة مساء، سيكون الضابط المتقاعد خارج الفندق، لكنها قد تأتي أبكر من ذلك أيضاً، فقد سمع أن هناك سيارات تعمل على خط تلك القرية منذ بضع سنوات. إنها قرية قريبة من قرى السهل الكبير. لقد ذهب إليها، مرة واحدة، حين كان أبوه على قيد الحياة، وهو في الخامسة عشرة، في يوم صيفي. كان قد دعاه عمر لزيارة القرية: "اسأل عن بيت عائلة قرة مصطفى". لا بد أنها مرت، بدورها، من تلك الساحة التي فيها سبيل ماء، وأن الجالسين أمام المقهى قد نظروا إليها. كانا قد أكلا عنباً برائحة طيبة في كرم طويل، واصطادا

السمك في جدول كومشاي. رأيا في المعبر جواميس نائمة. ركض عمر وهو يدوس عليها، فلم تتحرك. أما زبرجد، فالتف من حولها وهو يحمل حذاءه وبنطلونه في يديه. كان ذلك في السنة الأخيرة من الحرب، وهناك أزمة في الخبز. ضحكَا على راعي الجواميس واشتريا له رغيفاً ساخناً من الفرن قبل عودتهما إلى البيت في المساء.

هل هي السادسة وأربعين دقيقة، مرة أخرى؟ نظر إلى الضابط المتقاعد، فوجد الصحيفة تغطي وجهه. ربما كان من أسباب قلقه أن الرجل ضابط سابق. "يا زبرجد ابن أحمد". "مرني سيدي القائد". "لا تصرخ! هل ترى أنني أطرش!" بعد ستة أشهر في الكتيبة، اتخذ النقيب منه حاجباً. ففي أحد الأيام، سأل النقيب الجنود عن المهن التي اشتغلوها قبل الالتحاق بالخدمة. كان هناك جندي آخر قال أيضاً إنه عمل في فندق لكن النقيب اختار لسبب ما زبرجد. كان بيت النقيب كبيراً نوعاً ما، وينام في غرفة قرب باب البيت. كان يعمل من الصباح حتى الظهر مثل عاملة فندق. وزوجة النقيب وأختها التي تقدم بها العمر تتبادلان الكلام بحضوره بلا تحفظ. كانتا ترتادان حمام السوق مرة كل شهر، فكان زبرجد يحمل بقجة ملابسهما، ثم يجلس في مقهى مقابل بانتظار خروجهما من الحمام. كان صاحب المقهى والنادل يستهزئان به فيقولان مثلاً: "أربعة شاي مخمّر للسيدات"، أو: "هل ستدخل الشاي بنفسك إلى الحمام؟" يا حسرتي على تلك الأيام... تلك العجوز الشمطاء على الباب لن تسمح... "انظر إلى وجهه كيف يتوهج... في الليل...". كانتا تصطحبان الصبيين الصغيرين معهما. الأصغر بينهما يلثغ في النطق فيناديه: "عمو كبجد".

لم يخبر زبرجد أباه بتعيينه حاجباً في بيت النقيب. كتب لأبيه يطلب منه مراسلته على عنوان بيت النقيب، على أنه بيت أحد رفاقه في الكتيبة، تجنباً لفتح رسائله إذا وصلت إلى عنوان الكتيبة. أكثر الرسائل على نمط متكرر. وكثيراً ما يطلب النقود من أبيه بحجج كتعرض بندقيته للصدأ أو مطرته للسرقة أو حربته للكسر. وكان يرتاد الماخور، مرة أو مرتين في الأسبوع، بعد الظهر. كان يدخل الباحة فتفتح له النافذة تلك المرأة الهرمة ذات الأسنان المتباعدة التي تنادي زميلتها قائلة: "تعالي، جاء صاحبك". فترحب به تلك قائلة: "آه! لقد

جاء جنديي الصغير“، ثم تساعدانه على التسلق والدخول من النافذة. في بعض الأيام، يصل وتكون المرأة في الطابق العلوي مع أحد الرجال، فيجلس وينتظرها. كانت الهرمة تقول ضاحكة: ”صاحبتك طوّلت يا صهر“، فيشاركها الضحك. ثمة من يصعدون الدرج ومن يهبطونه، فلا يعرف أيهم كان مع المرأة التي ينتظرها. وإذ تنزل أخيراً، تقول له بنبرة غير مبالية لا تتناسب مع الكلمات: ”آه! لقد جاء جنديي الصغير“.

- هل قلتم شيئاً؟

انتبه من شروده: ”لا، يا سيدي“.

***

حين انهمك في تناول العشاء كانت عاملة الفندق تنتظر أمام الدرج مستندة إلى درابزينه. قال لها: ”اذهبي للنوم“.

أطرقت ولم ترد. كان يأكل بسرعة. الفاصولياء مهروسة بعض الشيء.

- كنت تعدين لوناً من الطعام بطحين الذرة، ليتك تعدينه مرة أخرى.

- تقصد عصيدة كجمك؟ حسناً.

حمل الرغيف المتبقي ونهض، ووضعه في قدر في غرفة المؤونة. غسل فمه ونظر في المرآة. نظّف أسنانه مرة أخرى. خرج وأغلق الباب. كانت عاملة الفندق قد مسحت الطاولة قبل أن تحمل صينية الطعام وتذهب. جلس في مقعده وأشعل سيجارة. كم واحدة دخن اليوم؟ لم يعد يسعل. كان يسمع وقع خطوات من الخارج بين حين وآخر. حين أطفأ سيجارته سمع صوت القطار. ”مرحباً، هل غرفتي شاغرة؟ مرحباً، هل الغرفة شاغرة؟ هل غرفتي شاغرة؟ هل الغرفة شاغرة؟ هل لديكم سرير؟ مرحباً، هل لديكم سرير؟ مساء الخير، هل لديكم سرير؟ مساء الخير، هل غرفتي شاغرة؟ مساء الخير، هل الغرفة شاغرة؟ مساء الخير، لقد عدتُ، هل غرفتي شاغرة؟ مرحباً...“ انتفض ونهض واقفاً. سوّى سترته، واقترب من الطاولة، وتمسك بها بيده اليمنى. بدأ عداً تنازلياً من العدد مئة وصولاً إلى ثلاثة وثلاثين. لا مبرر للقلق، فلعلها لن تأتي مساء الغد أيضاً. سحب يده ومشى، وأفرغ منفضة الضابط المتقاعد في سلة

النفايات. في اللحظة التي أعاد فيها المنفضة إلى مكانها فُتح الباب. دخل شخصان أحدهما بعمر متوسط والثاني شاب.

- هل لديكم غرفة بسريرين؟

- نعم.

اتخذ مكانه وراء المكتب وطلب منهما بطاقتي الهوية. أخرج الرجل البطاقتين من جيبه وأعطاهما لزبرجد. كانت لهما الكنية نفسها.

- الطابق الثاني، الغرفة رقم 5، أتريدان المفتاح الآن؟

- لا، سنأتي في ما بعد.

انصرفا. لم يعتد التدقيق كثيراً في الزبائن، فكان يعطي سريراً لكل من يطلبه ما لم يكن الزبون في غاية الثمالة. أحياناً يغض النظر عن العاهرات اللواتي يأتين برفقة رجال يتظاهرون أنهن زوجاتهم. يعطيهم إحدى الغرفتين 2 أو 6 المزودتين بسريرين عريضين، ويشغلهما أيضاً أزواج وزوجات حقيقيون. وفي بعض الليالي القليلة، يعطي غرفاً بسريرين لـ"آباء" أو "أعمام" متوجسين يأتون برفقة شبان. كانت ليالي هؤلاء الثنائيات، زوج وزوجة أو أب وابن أو عم وابن أخ، تمضي بلا ضجيج، وينصرفون باكراً في الصباح. لكن حادثاً وقع قبل خمسة أشهر جعله لا يأمن جانب الثنائيات الذكورية. ففي وقت متأخر من إحدى الليالي في منتصف أيار، جاء رجل مسن برفقة شاب أشقر وسيم. "هل لديكم غرفة بسريرين؟" سجل الاسمين اللذين أعطياهما له وأعطاهما المفتاح. "الطابق الثاني على اليمين، الغرفة رقم 5". حين أطفأ الأنوار، في منتصف الليل، وأخذ يصعد الدرجات، وقف أمام باب الغرفة وأصاخ السمع. "نعم.. هو..". لم يفهم شيئاً من الكلام المتقطع. تابع صعوده إلى العلّيّة، فخلع ثيابه، ودخل غرفة عاملة الفندق. حين هم بالتمدد على السرير سمع صرختين متتاليتين آتيتين من تحت. ركض إلى غرفته وارتدى ملابسه ونزل، فوجد خمسة نزلاء أو ستة متجمعين أمام باب الغرفة رقم 5 وهم بملابسهم الداخلية. قالوا له إن الصراخ جاء من هذه الغرفة "هل نكسر الباب؟"... "يجب إبلاغ الشرطة، هل يوجد هاتف؟"... "ها هو مدير الفندق"... "أفسحوا لي". قرع على الباب وسأل من في الداخل: "هل الصراخ من عندكم؟"... "لا شيء يستوجب

القلق! صرخ الفتى في نومه“... قال أحد الواقفين: ”هذا غير مقبول، افتحوا الباب“. فتح الباب وظهر في إطاره الرجل المسن بساقين عاريتين وسترة غير مكترث وواثقاً بنفسه. كان الفتى يرتدي قميصاً داخلياً وجالساً على السرير وقد غطى ساقيه باللحاف. سأله من الباب: ”ماذا حدث؟“ أجابه الفتى بصوت أجش: ”لقد خدعني“. ”ماذا تعني؟ هل نطلب الشرطة؟“. هز رأسه، وكان وجهه شاحباً، فقال: ”لا... لا تطلبوا الشرطة“. قال الرجل: ”آسف! لقد أقلقنا راحتكم“. التفت إلى الفتى: ”أتريدني أن أنتقل إلى غرفة أخرى؟“ ”لا. ابقَ هنا“. المتجمعون أمام الباب صامتون. قال لهم: ”تصبحون على خير“، وأغلق الباب. قال رجل مسن: ”عجبي! هيا إلى النوم، يا أصدقائي“. دخل الجميع إلى غرفهم، فأطفأ زبرجد الضوء وصعد الدرجات إلى الأعلى. خلع ملابسه وتمدد على السرير. جافاه النوم لبعض الوقت. حين وقف الرجل أمام مكتب زبرجد، في الصباح، لدفع الحساب، كان الفتى يقف وراءه على مسافة قريبة. قال له الرجل: ”ألن تلقي تحية الصباح على السيد؟“ استدار الفتى وابتسم وقال بصوت مختلف عن صوته في الليل: ”طاب صباحك“.

- مساء الخير.

- عليكم وعلينا.

كانوا رجلان وامرأة. وثمة ضمادة على أنف المرأة ووجهها أصفر.

- سلامتك!

- تسلم. وقت العصر رعف أنفها ولم نتمكن من إيقافه، فجئنا بالقطار لندخلها المستشفى. هي الآن أحسن.

سجّل أسماءهم. سألهم حين أعطاهم المفتاح فعرف أنهم ليسوا من تلك القرية. منذ بدأت سيارات الأجرة تعمل لم يعد ينزل في الفندق أحد من القرى القريبة، باستثناء تلك الأيام التي تدفع فيها المؤسسة الحكومية Tekel مستحقات الفلاحين عن التبغ. ففي أيام التبغ هذه، تكون جميع الغرف محجوزة باستثناء رقم 1. رفع يده إلى أنفه ثم سحبها كأن أحداً يمكن أن يراه.

# الخميس

حين سمع صوت قطار السادسة وأربعين دقيقة نهض عن مقعده. التف حول طاولة المكتب فوقف أمامها. لم تأتِ مساء البارحة لكن اليوم هو الخميس. "مرحباً، هل غرفتي شاغرة؟" مرر أصابعه من خلال شعره. كم هناك من احتمالات! أما المرأة، فلن تقول إلا واحدة منها. كثيراً ما كان يخفق في طرد هذه الأفكار بتمرير أصابعه في شعره أو بهز رأسه أو بتوبيخ نفسه: "كفى!" لا يتعلق الأمر بالاحتمالات وحدها بل كذلك بتفاصيل صغيرة تافهة ترتبط بها... فُتِحَ الباب، وظهر رجل حسن الهندام. هذا الوجه...

- هل لديكم غرفة بسرير واحد؟

- نعم.

- لطفاً احجزوها لي! سآتي في ما بعد.

استدار وانصرف. له وجه أسمر قاسٍ. شفتاه وعيناه كأنما تسخر منه. سبق ورأى هذا الوجه. إذن، هي لن تأتي هذا المساء أيضاً. ألم يكن في وسع أخيها، أو كائناً من كان الشخص الذي قصدته، أن يقول لها: "ابقي لنسافر معاً قبيل عيد الجمهورية"؟ لعلهم سبق ورافقوها، ذات صباح، بوسيلة نقل أخرى إلى المحطة لتسافر في قطار أنقرة. هز رأسه، وشد ياقة كنزته إلى الأسفل قليلاً. كان قد اغتسل في الصباح وحلق ذقنه (قال له صبي الحلاق بعد الظهر: "المعلم بانتظارك". "قل للمعلم إنني حلقت شعري قبل يومين". انصرف الصبي. بعد قليل جاء الحلاق: "هل أخطأنا بحقك في شيء يا زبرجد أفندي؟" "لا، أبداً! نزلت إلى السوق الإثنين فحلقت هناك". "حين أخبرني الصبي ظننت أنك لن تأتي إلينا بعد الآن". "لا، سآتي". "أراك وقد حلقت شاربك أيضاً؟" "هذا ما حدث". "جيد! أصبحتَ أكثر شباباً". انصرف الحلاق. سأله الضابط المتقاعد: "ماذا يريد منك؟" "أن أحلق شعري") كان قد مرر موسى الحلاقة بلا ضغط فوق المنطقة التي جرحها، صباح البارحة، عند حافة فمه اليمنى. جفف وجهه ونظر في المرآة: ليس هناك نزف. مع ذلك، احتفظ بالمنشفة فوق منطقة الجرح لبعض الوقت. ارتدى ثيابه وهبط الدرج. عاد أدراجه من الطابق الثالث،

فأيقظ عاملة الفندق. لقد اعتادت أن تشتري خضار الأسبوع من السوق أيام الخميس. استيقظ، قبيل الصباح، على حلم انتهى بقذف طويل. وجد سرواله الداخلي لزجاً من الأمام. نهض ممسكاً بالمنطقة اللزجة كي لا يوسخ السرير أو أرض الغرفة وأسرع إلى الحمام فاغتسل. يتسخ الإنسان خارج إرادته. استغرب كيف أنه ضاجع الخادمة في المنام، في الوقت الذي لم يكن يفكر في ذلك في الأيام الأخيرة وهو صاحٍ. كان الأمر شبيهاً بالنسخة الحقيقية مع فارق أن الخادمة فتحت عينيها في المنام واحتضنته، وقالت له حين عض ثديها: "آآه! أنا لك" أو: "أوه! كم أنا لك". مد يده فوجده وقد بدأ ينتصب، فضغط عليه وسوّى وضعه. في بعض الليالي، في المهجع، بالشحاطة... فُتِحَ الباب ودخل الضابط المتقاعد. منذ أسبوع وبنطلونه بلا تجاعيد. لعله كان يمر على الخياط، أحياناً، في وقت خروجه من الفندق لتناول الغداء، فيكوي بنطلونه هناك. هو أيضاً حصل على كيّ لبنطلونه اليوم بعد الغداء. كان أنف الضابط المتقاعد محمرّاً، واضح أنه قد شرب الكحول الليلة أيضاً. جلس في مقعده.

- الجو بارد الليلة في الخارج، كيف تدفئون الفندق في الشتاء؟

- نشعل مدفأة كاز هنا. أول الدرج يغلق بحاجز خشبي.

- وماذا عن الطوابق الأخرى؟

- تبقى بلا تدفئة.

أمسك بكتابه وفتحه. حسنٌ أنه ليس من النوع الثرثار. لو كان طبيب الأسنان... لو جلس طبيب الأسنان وحده هنا لنصف ساعة، لمات ضجراً. منذ البارحة وهو يشعر بالمودة نحو الرجل. فقد قال له حين عاد إلى الفندق بعد خروجه لتناول العشاء: "لقد خرجتم مرة واحدة فقط خلال ستة أيام. هل تبقون جالسين هنا باستمرار؟" "نعم، يا سيدي، هذا هو عملي". "إنه عمل صعب. وليس لديكم مساعد. لديكم طاقة كبيرة على التحمل". هل عمله صعب حقاً؟ حين رفع فاروق بيه راتبه وراتب عاملة الفندق، قبل خمس سنوات، بمناسبة رفع تسعيرة المبيت في الفندق، شعر زبرجد بالخجل وخفض بصره. كانت تلك هي المرة الثانية التي يأتي فيها فاروق بيه. أما الأولى، ففي شتاء 1955 بعد وفاة رستم بيه. كانت شقيقاته قد تخلين له عن الفندق في

اقتسام الإرث. ”هل ترغبون في رؤية الطوابق العليا؟“ قال إنه كان في عمر السنتين حين استقر أهله في إزمير. اصطحبه أبوه بضع مرات، في طفولته، إلى الفندق. أقام، تلك الليلة، في هذه الغرفة، ورحل في الصباح. كان الضابط المتقاعد يمسك الكتاب بيده اليسرى، واليمنى مشغولة بسيجارة مشتعلة. فُتِحَ الباب في اللحظة نفسها التي نهض فيها ليعد الشاي. دخل رجل شاب، واقترب من المكتب، ونظر نحو الضابط المتقاعد. انحنى على المكتب وقال بشبه همس: ”مرحباً! لدي رجاء“.

- تفضلوا.

- كنت أريد السفر إلى إزمير وبرفقتي امرأة. أخبرونا في المحطة أن هناك تأخيراً لثلاث ساعات. هل يمكننا النزول عندكم الليلة؟ نحن في وضع صعب ولا نريد الانتظار في المحطة.

- أين المرأة؟

- في المحطة.

- حسناً، اذهب وأحضرها.

- شكراً لكم!

حين خرج الشاب قال الضابط المتقاعد: ”من هذا الشاب؟“

- لا أعرفه. سألني عن شخص (ثم صحّح) أقصد أنه طلب غرفة وسيعود مع شخص.

- أقلتم إنه سأل عن شخص؟

- لا، بل قال إنه سيأتي برفقة شخص.

اصفرّ وجهه؛ ربما بفعل الكحول. فُتِحَ الباب ودخل الرجل الذي حجز غرفةً في المساء. ذو الوجه الأسمر القاسي... فجأةً تذكره! إنه الرجل الذي جاء قبل سنتين وأقام ليلةً واحدة في الفندق، ورحل في الصباح قائلاً: ”لا أحمل معي نقوداً. سأدفع لك في وقت لاحق“. وقف أمام المكتب: ”هل ستدلونني على الغرفة بنفسكم؟“

- الدفع سلفاً يا سيدي.

- ولمَ ذلك؟ سأدفع في الصباح حين أغادر.

- المعذرة! أنتم مدينون لنا أيضاً لقاء الإقامة ليلة واحدة.
- ماذا؟ أنا مدين لكم؟
- نعم، كان ذلك قبل سنتين. حين غادرتم وعدتموني بالدفع في وقت لاحق.
- خطأ! هذه أول مرة آتي فيها.
- لا أظن أنني على خطأ.
- كيف ذلك؟ إذا كنتم لا تثقون بكلامي، لا يمكنني أن أقيم في فندقكم.
- كما تشاؤون.

ضحك الرجل، وقال: "يا له من مكان عجيب!" وخرج. حمل الضابط المتقاعد صحفه وكتابه واقترب من المكتب. بدا شاحب الوجه كأنه يعاني من ألم. أتراه مريضاً؟ أعطاه المفتاح.

- طابت ليلتكم، يا سيدي.

كان ينظر إلى عينيه. قال له بنبرة من يشتم: "أنتم في غاية الدقة". تراجع زبرجد، في مقعده، إلى الوراء. ابتعد الرجل وبدأ يصعد الدرج. أراد أن يقول له: "لا تذهب الآن" لكن كيف يمكنه أن يقول ذلك؟ سمع صوت إغلاق الباب من فوق، ثم فتح باب الفندق ودخل ذلك الرجل الذي سبق وجاء وبرفقته امرأة شابة في يدها حقيبة. بدا عليهما التوجس. اقترب الرجل من المكتب في حين بقيت المرأة على مسافة وهي مطرقة إلى الأرض. التقط مفتاح الرقم 6: "سأعطيكما غرفة بسرير عريض".

- أهي بسرير واحد؟
- نعم.
- أليس هناك غرفة بسريرين؟
- توجد، لكن هذه مريحة أكثر.

التفت إلى المرأة وسألها: "ما رأيك؟"

هزت المرأة كتفيها: "لا أعرف".

- حسناً! سنأخذها.

أعطاه المفتاح.

- الطابق الثالث، أول غرفة على اليسار. الرقم 6.

نظر إليهما وهما يصعدان الدرج. كانا متساويين في الطول. تنتعل المرأة زوجاً من الأحذية ذات الكعب المنخفض. لها مؤخرة صغيرة وساقان متناسقتان. كان الرجل قد قال إنهما "في موقف صعب". لعل كلاً منهما متزوج. ترى، هل سيحتضنها لحظة دخولهما الغرفة؟ من المحتمل أنها ستطلب منه إقفال الباب.

بعد نصف ساعة على مرور قطار أنقرة، تربس باب الفندق وأقفله. كان التأخير، هذه المرة، ساعتين بدلاً من ثلاث. أطفأ أضواء قاعة الاستقبال ودخل الغرفة. لقد زيّتَ مفصلات الباب ليلة الثلاثاء. مكث، ليلة البارحة، في الغرفة وقتاً وجيزاً جداً. كان قد اقترب من المنشفة، ثم استدار وخرج. مشى نحو السرير، ووقف أمام الخزانة الصغيرة بجانب السرير. كانت المرأة جالسة، في تلك الليلة، على حافة السرير ها هنا، بكنزتها السوداء وعقدها الفضي بحلقاته الكبيرة. وقد نظرت إليه. فوق الصينية إبريق الشاي والمصفاة وكأس وخمس قطع سكر في صحن. كان قد وضع فيه ست قطع. هل كانت قطعة السكر الناقصة دليلاً قاطعاً على أن المرأة شربت كأس شاي واحداً بقطعة سكر واحدة؟ ماذا لو أنها قسمت القطعة قسمين وشربت بهما كأسين؟ بل يسعها أن تضع قطعة السكر في فمها وتشرب عليها ثلاث كؤوس. مد يده ثم سحبها. لكن عليه أن يعرف كيف شربت المرأة الشاي. انحنى ورفع غطاء الإبريق. وجده مملوءاً لأكثر من نصفه. إذن، شربت كأساً واحداً. أعاد غطاء الإبريق إلى مكانه. أمسك بكأس الشاي، ورفعه نحو الضوء وأداره في يده. ثمة بقعة باهتة عند حافة الكأس حيث لامستها شفتاها. هناك بقعة أخرى لكنها أصغر. لعلها أثر إصبعها. سمع صريراً من الغرفة أعلاه. ظل لمدة ينظر إلى الكأس ووجهه متجه نحو الضوء. في أسفل الكأس بقايا شاي أسود بمقدار جرعة واحدة. قرب الكأس من فمه وأغمض عينيه. شم رائحة الشاي البائت. قبّل المنطقة التي ظن أنها أثر شفتي المرأة. فجأةً سمع ضجيجاً في الغرفة أعلاه مع صوت ارتطام في السقف. قفز من مكانه فوقع الكأس من يده على الأرض وانكسر. عيناه مفتوحتان وشعر بدنه منتصب. لا بد أن الضابط المتقاعد وقع من سريره على الأرض. أمسك بقائم السرير وبلع ريقه. سمع من فوق صوت ماء تلاه

صرير. إذن، عاد الرجل إلى النوم. أخذت خفقات قلبه تتباطأ. ترك قائم السرير وتراجع خطوةً إلى الوراء، ونظر إلى شظايا الكأس المكسور على الأرض. لقد أفسد نظام الغرفة؛ لن تأتي المرأة بعد الآن. مشى نحو باب الغرفة، وخرج بعدما أطفأ الضوء الذي بقي مشتعلاً طوال أسبوع.

## الجمعة

حين نزل إلى قاعة الاستقبال كانت الساعة قد تجاوزت السابعة. فتح الباب الخارجي ثم راح يعد الشاي في غرفة المؤونة، وسمع صوت باب في الأعلى يفتح ثم يغلق. خفّفَ النار تحت الإبريق وخرج. حين جلس وراء مكتبه رأى الضابط المتقاعد يهبط الدرج وفي يده حقيبة سفره الجلدية الصغيرة. بدا وجهه مرهقاً مسودّاً وبلا حلاقة.

- صباح الخير، يا سيدي.

- صباح الخير! بكم أدين لكم؟

- سبعة أيام؛ المجموع مئة وخمس ليرات.

أخرج نقوداً من جيبه الخلفي، وأخذ منها مئة وعشرين وضعها فوق المكتب، وأعاد البقية إلى جيبه، وحمل حقيبته.

- احتفظ بالباقي.

إنه يوم سيئ للمغادرة. حين اقترب الرجل من الباب خاطبه زبرجد: "إذن، أنتم تهربون؟"

توقف الرجل، وانكمشت كتفاه. لم يلتفت. مشى، وخرج من الباب وأغلقه بهدوء ومضى في طريقه. هل أدرك أنها لن تأتي؟ لم يطاوعه لسانه ليقول: "لن تأتي بعد الآن، لكن عليّ أن أنتظر". لعله كان ينتظر أحداً غيرها. مع ذلك، صمد مطولاً.

بعد الإفطار، حمل المكنسة والمجرفة ودخل إلى غرفة المرأة. أشعل الضوء، وكنس شظايا الكأس المكسور على يمين السرير. جمعها وأفرغها في سلة النفايات. فرك بخرقة مبللة بقع الشاي على مشمع الأرضية وأزالها. ترك

الخرقة في غرفة المؤونة وغسل يديه. كان قد ترك جرعة شاي في كأسه الثانية على الفطور، فحمل الكأس ودخل الغرفة ووضعها مكان الكأس التي انكسرت. إن جاءت المرأة، فلن تدرك ما حدث، أما هو، فيعرف. أطفأ الضوء وخرج، ثم أقفل باب الغرفة. جلس على مقعده. سمع صوت صفارة مصنع النسيج. نظر إلى الساعة: الثامنة إلا دقيقتان. كانت الساعة ذات المنبه تتأخر دقيقتين كل يوم. ترى، هل نسي تقديم الساعة اليوم حين عبّأها؟[4] سيتأكد من الأمر في موعد ضرب المدفع منتصف النهار. كان قد دق باب غرفتها، الجمعة الماضي، في الثامنة ودقيقتين. "نعم، أنا أنهض". هل مضى على ذلك أسبوع واحد فقط؟ أخرج من جيبه اليسرى علبة السجائر وعلبة الثقاب. لم يكن مهماً أنه ترك المرأة نائمة، في ذلك الصباح، لدقيقة إضافية أو دقيقة ونصف أو دقيقتين، لكن بعض التفاصيل مهمة، مثل أنها لم تملك بطاقة هوية، أو تركها المنشفة، أو السيجارتين اللتين أطفأتهما قبل انتهائهما. فهذا يعني أنها كانت قلقة وفاقدة التركيز رغم أنا لم تظهر ذلك. أليس الأحرى بامرأة في طريقها إلى زيارة أخيها لأسبوع أن تكون مرتاحة أكثر؟ ربما في تلك القرية شخص آخر تعرفه من أنقرة.

4 نوع قديم من الساعات كان يتطلب الشحن يدوياً بطاقة ميكانيكية، قبل عصر استخدام البطاريات.

حين أطفأ سيجارته رأى الرجل والمرأة اللذين جاءا ليلة البارحة يهبطان الدرج. كان الرجل صريحاً. لو وصلا معاً وقال الرجل إنهما زوجان، ما شك في أمرهما. كانت المرأة قد بالغت في صبغ وجهها ووجه الرجل شاحباً. قال لها: "لا تنسي"، ووقف أمام المكتب. ابتسمت المرأة ومضت نحو الباب وخرجت.

- صباح الخير. هل يمكنني البقاء لوقت؟

- كما تشاؤون.

كان ينظر باتجاه الباب. تململ وأخرج من جيبه علبة سجائر مدها نحو زبرجد: "تفضلوا!"

- لقد أطفأتُ سيجارتي للتو، شكراً. هل ارتحتما في النوم؟

- نعم، كانت الغرفة ممتازة، شكراً لكم.

أشعل سيجارته وسحب منها أنفاساً متلاحقة.

- هل يمكننا المجيء مجدداً في مقبل الأيام إذا اقتضى الأمر؟

- بالطبع، يا سيدي.

نقل السيجارة إلى يده اليسرى واستل بيمناه ورقة خمسين ليرة من جيبه الخلفي وضعها على المكتب.

- أستودعكم الله.

فتح درج المكتب، في حين مضى الرجل نحو الباب.

- لحظة، لو سمحتم، لأعيد إليكم باقي الحساب.

خرج الرجل كأنه لم يسمع. أخذ زبرجد من الدرج الليرات الخمس عشرة التي تركها له الضابط المتقاعد وضمها إلى ورقة الخمسين ودسها جميعاً في جيبه الخلفي. ترى، هل رد ذلك الرجل المدين بأجرة ليلة (أكان هو حقاً؟) على أعقابه ليتسنى له إعطاء الغرفة رقم 6 لهذين الرجل والمرأة؟ ليلة أمس، في طريقه إلى النوم، وقف قليلاً يتنصت على غرفة الضابط المتقاعد. فكر في قرع الباب لكنه تراجع عن ذلك حين سمع صرير السرير وسعالاً مكبوتاً تحت اللحاف، فابتعد وصعد إلى الطابق الثالث حيث وقف أمام باب الغرفة 6، وانحنى على ثقب المفتاح. كانت الغرفة غارقة في الظلام، والنزيلان يتحدثان همساً، فلا يمكن التقاط كلامهما. لعلهما في استراحة. سمع صوت صرير.

"أتريدين سيجارة؟" قالت المرأة: "أجل". ابتعد عن الباب، وصعد الدرج إلى غرفته.

## الليل

بعد وقت طويل على مرور قطار السادسة وأربعين دقيقة مساءً، كان يتمشى بين أول الدرج والباب الخارجي عاقداً يديه خلف ظهره. فتح الباب، وظهر شاب متوسط القامة.

- لا توجد أسرة شاغرة، يا سيدي.

- آه... حسناً!

انصرف الرجل. سبق وصرف شخصين آخرين، أول المساء، بدعوى أنه لا شاغر. وقد انتهت عاملة الفندق، بعد الظهر، من أعمال النظافة في الطوابق العليا ثم مسحت أرض قاعة الاستقبال. وقفت أمام باب الغرفة رقم 1 وفي يدها دلو التنظيف، وسألته: "هل عليّ تنظيف هذه الغرفة يا آغا؟" "لا. إنها نظيفة". هل كانت الغرفة نظيفة حقاً؟ دخل غرفة المؤونة، وأعد الشاي وخرج. جلس في مقعد في زاوية القاعة. كانت المنفضة النحاسية الكبيرة فارغة. أهي الليلة الأخيرة؟ البناء القديم الذي تمت فيه الولادة والحياة والموت جاهز. لم تأتِ مع القطار. سينتظر ساعة أخرى إلى حين الحادية عشرة. فُتِحَ الباب. إنها المومس الشقراء التي تبيت في الفندق، من حين إلى آخر، مع رجل ما. كان برفقتها رجل متوسط العمر. لم ينهض من مكانه.

- لا شواغر لدينا.

- آآ... لماذا؟ نحن زبائنكم.

قال الرجل: "لنذهب".

لوت المرأة عنقها متذللة: "ألا يمكنكم عمل شيء؟ الغرفة في الطابق الثالث..."

- لا شواغر لدينا الليلة.

أمسك الرجل بذراع المرأة وقال لها: "لنذهب!"

ذهبا. لقد جاءت هذه المرأة، ليلة الأربعاء، مع رجل آخر. نهض من مكانه وفتح سجل النزلاء فوق المكتب. كان مكتوباً في خانة الغرفة 6 صالحة آلاكاش وأحمد آلاكاش. أغلق السجل. سجل الاسمين نفسيهما في خانة الغرفة 6 في الفيش اليومي. فكر بحثاً عن اسم للرجل الذي جاء قبل هذين. انقضت أربعون سنة ولم يحدث أن نزل في الفندق أحد باسم زبرجد. سجل في خانة الغرفة 5 زبرجد غزغين[5]. سمع صوت نسيس من غرفة المؤونة. هرع إلى الموقد فأطفأه. لقد احترق الشاي وصار غير قابل للشرب. شطف إبريق الشاي وخرج. عاد للجلوس في مقعد الضابط المتقاعد. جاء أربعة أشخاص آخرين،

اثنين اثنين، حتى الحادية عشرة، فصرفهم بدعوى "لا شاغر". كانت تُسمع أصوات سيارة عابرة بسرعة من حين إلى آخر.

5 كنية غزغين تعني في التركية السوّاح الجوّال (في تناقض كاريكاتيري مع حالة زبرجد الذي لا يغادر الفندق).

قرابة منتصف الليل نهض واقفاً. تربس الباب وأقفله وأطفأ الأنوار. بال في مرحاض الطابق الثاني وعاد أدراجه. دخل غرفة المرأة التي جاءت في قطار أنقرة. أسند ظهره إلى الباب ووقف في الظلام. "هل يمكنني أن أشرب كأساً من الشاي؟" لقد احترق الشاي. أشعل الضوء. كان كل شيء في مكانه حتى كأس الشاي. هل علقت معطفها البني الرقيق على المشجب المثبت على الجدار على يسار السرير؟ حين دخل وفي يده صينية الشاي كان المعطف فوق السرير. لعلها وضعته لاحقاً فوق الكرسي. كذلك كنزتها، وتنورتها، و... اقترب من السرير. هذا هو السرير الذي وُلد فيه. اللحاف من قماش الأطلس ذي اللون الخمري هو أحد ألحفة الدار قبل أن يتحول إلى فندق. هل كانت عارية تحته؟ أشعل الونّاسة الليلية وأطفأ المصباح الكهربائي. خلع حذاءه وجواربه وانتعل الشحاطة. خلع ثيابه وعلقها على المشجب. غسل قدميه وجففهما بمنشفة الفندق. تمدد على السرير والتحف باللحاف. أدار المخدة وضمها إلى صدره، وقال بصوت مسموع: "لو لم تأتِ، لمتُّ". شم المخدة وقبلها. انتصب عضوه الذكري. كان الجو حاراً ويداه تتعرقان. استقام جالساً ودفع اللحاف بعيداً بقدميه. كان الشعر على صدره قليل الكثافة ووجهه شاحباً متوتراً. التقط المنشفة التي نسيتها المرأة بخطوطها السوداء الرفيعة والصفراء والحمراء العريضة، من فوق حاجز السرير المعدني، وبسطها وسط السرير. سحب طرفاً من المخدة إلى تحت المنشفة وارتمى فوقها واحتضنها. قال مرة أخرى بصوت مسموع: "لو لم تأتِ، لمُتُّ". يبدو أن المرأة سألته سؤالاً فأجاب: "نعم". ذراعاه رفيعتان جداً، وساقاه مشعرتان. مؤخرته مشعرة أيضاً، وعليها بثور. راح يرتفع وينخفض ببطء ورتابة. رفع وجهه عن المخدة وقال بصوت حاول أن يكون شبيهاً بصوت المرأة: "أووه! إياك أن تتركني. عض نهديَّ". انزلق إلى الأسفل قليلاً وعض المخدة وتأوّه. استمرت مؤخرته

في الارتفاع والانخفاض بتسارع متزايد، وساقاه وظهره مشدودة، ثم توقف عن الحركة. ثم قال بصوت رفيع متعب كأنما يُهمَس في أذنه: "أووووه! كم أنا لك".

## الثلاثاء

إنها الليلة الخامسة. نهض في السرير على ركبتيه ودعك المنشفة. مسح بقسمها الجاف الرطوبةَ اللزجة على بطنه، وعلّقها على حاجز السرير المعدني. إنها تجف في يوم واحد. ينفضها قبل أن يتمدد على السرير، ويزيل بأظفاره ما يبقى ملتصقاً. مع ذلك، بدأت الخطوط الصفراء تزداد قتامة خاصة في الوسط. دفع بالمخدة إلى جهة الرأس، وسوّى وضعها، ثم تمدد وغطى نفسه باللحاف. له خمس ليالٍ وهو ينام في هذه الغرفة. ليلة الجمعة أحضر من غرفته السابقة، فوق، ساعته وكنزته الخضراء الفاتحة وعلبة الحلاقة، وعاد. وصباح السبت أحضر طاولة من الغرفة 6، ووضعها قرب المغسلة، ووضع فوقها علبة الحلاقة. صار يحلق كل يوم. يستيقظ متأخراً في الصباح ويمكث في السرير لوقت كما كان يفعل حين كان أبوه على قيد الحياة. فليس في الفندق نزلاء. كان يرد الزبائن على أعقابهم بدعوى "لا شاغر". جمع مفاتيح الغرف في درج المكتب. ليلة الإثنين تخلص من تجار الماشية بصعوبة. قال أحدهما وهو يغادر: "غير معقول! كل هذا الفندق...".

له أربعة أيام وهو لا يوقظ عاملة الفندق. كانت غالباً ما تستيقظ قبيل الظهر. حين جاءته بعشائه مساء الأحد قالت له: "لماذا لا يأتون، يا آغا؟" أجابها: "لا أعرف. سيعودون للظهور". غسلت، بعد ظهر ذلك اليوم، بضع قطع من الملابس المتسخة، ونشرتها في الرواق الخارجي، فقد كان الجو ماطراً. نزلت الدرج، اليومَ، وقالت له: "لأغادر، إن شئتَ يا آغا". "إلى أين ستذهبين؟" "لا أعرف. ربما أذهب إلى القرية". "لماذا؟" "لا عمل لي هنا". "ليكن. ارتاحي قليلاً". "لا أحد يأتي". "اصعدي إلى غرفتك. سيأتون قريباً". كان حرياً بها أن تكون مرتاحة أكثر من هذا الوضع وقد تخففت من المسؤوليات. لكن يبدو أنها

غير مرتاحة لأن النظام الذي اعتادته على مدى عشر سنوات قد اختل. قال لها: "سيأتون قريباً". هل سيستقبل نزلاء مجدداً؟ لا يظن ذلك. كان يتخلص من الزبائن ثم يسجل أسماء مختلقة في الفيش، وفي الصباح التالي، ينقل تلك الأسماء إلى سجل الفندق. وحين يرسل مجموع الفيش مع بائع الصحف، يفتح الخزنة، فينقل النقود من مظروفه الخاص إلى مظروف الفندق. في هذا الصباح، طلب من بائع الصحف ألا يحضر له صحفاً بعد الآن، فلا أحد يقرؤها، وأعطاه ثمن الصحف المتراكم عليه لتسعة وعشرين يوماً. كان اليوم هو عيد إعلان الجمهورية، حين فتح الباب، في نحو التاسعة صباحاً. سمع أصوات الطبول والأبواق ترافق موكب تلاميذ المدارس. ثمة خبر مهم في الصحيفة: تُؤخر الساعات اليوم ساعةً واحدة في منتصف الليل. لقد نسي أن يفعل ذلك.

استقام جالساً في السرير، والتقط ساعة الجيب من فوق الخزانة الصغيرة وأخّر الوقت ساعةً واحدة: إنها الثانية عشرة إلا عشرين دقيقة. تمدد. كان قد رفع الصينية ليلة الجمعة حين أحضر من غرفته فوق ساعته وكنزته الخضراء الفاتحة وعلبة الحلاقة. المنفضة النحاسية هناك. تمدد على السرير ودخن إحدى السجائر التي أطفأتها المرأة قبل الانتهاء منها. أما زال ينتظرها؟ أسوأ ما في الأمر غياب الاتساق عن عقله. كم مرة غيّر قراره إلى حين خروجه في المساء! أخيراً قال لعاملة الفندق: "سوف أخرج، إذا طُرق الباب، لا تفتحي". مع ذلك، انتظر إلى أن مر القطار. للمرة الأولى منذ عشر سنوات، تناول الطعام في مطعم قريب من السوق يقدم المشروبات الكحولية، وطلب كأساً من العرق خرج قبل أن ينتهي من شربها. ثمة احتفال ليلي بالعيد في الساحة الكبيرة أمام المبنى الحكومي: ألعاب نارية وآلات موسيقية وراقصون. كانت الساحة مزدحمة. دوماً لم يكن قادراً على فهم ناس الخارج، كأنهم ليسوا من أولئك الذين يرتادون الفندق. كان رجلان يتصارخان بسبب تحرش لفظي أو جسدي بإحدى النساء. وتدخل في المشكلة آخرون. ابتعد عن تلك المنطقة. مرّ أمام السياج ذي القضبان الحديدية للبنك الذي عند الناصية حيث رأى رجلاً وامرأة وبينهما فتاة شابة سمراء طويلة القامة ترتدي كنزة سوداء. نظر إلى الفتاة فأدارت وجهها عنه. تابع طريقه ثم توقف مستنداً إلى جذع شجرة حيث

راقبهم من بعيد. قبل وصولهم إلى الجسر دخلوا بيتاً بطابق واحد. عاد إلى الفندق عبر شوارع لا يعرفها. كان الظلام سائداً.

التفت إلى يساره. على الضوء الخافت للوناسة الليلية لم تكد تظهر صورة المرأة في اللوحة ذات الإطار السميك المعلقة على الجدار. إنها مضطجعة هناك منذ سنوات طويلة. قال بصوت خافت: "استيقظي أيتها الفتاة! كفاك نوماً". أغمض عينيه. تحركت المرأة وتمطت، ونزلت عن الأريكة وألقت بالرداء الشفاف بعيداً عنها، وطردت الفتاتين الزنجيتين، وتمسكت بالإطار وتدلت منه. طالت قامتها، وضاق ردفاها، وتضاءل نهداها. أفلتت يديها وهبطت إلى الغرفة، وتقدمت نحو السرير.

فتح عينيه فوجد المرأة في الصورة على الجدار.

أغمض عينيه. انتصب ذاك ثانيةً. حرك أصابع يده اليمنى على الشعر القصير تحته. "ليته كبر أكثر قليلاً...". كانت المرأة ذات القامة الطويلة تنام تحته بطولها. هل أقبّل نهديك قبّلهما إن شئت سأقبّل عنقك أيضاً فتقول له قبّله قبّله لم يكن يستطيع بلوغ عنقها إذا تأخر في القذف كانت المرأة تحرّك وسطها ببراعة صعوداً هبوطاً صعوداً هبوطاً مهتزةً فوقه في المهد الذي في العليّة...

## الأربعاء

"الغرف مشغولة"، قال بصوت متحشرج. سعل وكرر القول: "الغرف مشغولة، يا سيدي". كان هذا أول زبون يأتي طوال اليوم. وجهه لا يظهر بوضوح. ها هو الأمر يبدأ مجدداً. سيكرر طوال ساعات النهار: "الغرف مشغولة" أو: "لا توجد غرف شاغرة". حين خرج الرجل من باب الفندق، وقف وأشعل الأنوار. انتزع الكرتونة التي كتب عليها: "يغلق الباب في منتصف الليل" وأحضرها إلى طاولة المكتب. كتب على الوجه الآخر لها بأحرف سميكة: "مغلق". لا ضرورة للتذرع بأسباب لإغلاق الفندق كأعمال النظافة أو

الترميم. ثبّتَ الكرتونة على إطار الباب. وحين عاد أدراجه إلى المكتب رأى عاملة الفندق عند أول الدرج.

- ماذا تريدين؟

- هل أرحل غداً؟

- ارحلي، إن شئتِ.

ظلت واقفة، وبدا عليها كأنها هرمت في بضعة أيام.

- هل تريدين أن تقولي شيئاً؟

- طهوتُ عصيدة كجمك. هل أحضر لك شيئاً منه؟

كان قد اكتفى، ظهراً، بشرب بعض الحليب، فلم يطلب منها طعام الغداء.

- ليس الآن. سأخرج. لا تفتحي الباب لأي طارق.

حين صعدت المرأة إلى الأعلى، أطفأ الأنوار. ظل واقفاً في الظلام لبعض الوقت. هل سترحل غداً حقاً؟ خرج من الفندق وأقفل الباب، وتأكد من إقفاله. ثمة جمهرة من الناس أمام مخبز الفطائر على مبعدة قليلة. اتجه إلى هناك. وثمة سيارة اصطدمت بإحدى الأشجار. مد عنقه مستطلعاً، إذ تعذر عليه رؤية ما داخل السيارة. سأل أحد الناس: "كم شخصاً كانوا داخل السيارة؟"

قال الفرّان: "ثلاثة. نقلوهم".

- هل مات أحد منهم؟

دفعه أحد الأشخاص ووقف أمامه. استدار ومشى باتجاه السوق.

كان مطعم البارحة الذي يقدم الكحول غير مزدحم اليوم. جلس إلى إحدى الطاولات الصغيرة ذات المقعدين قرب الباب. جاءه نادل يشبه أحد الصبية الذين يرتادون الفندق، فطلب منه الباذنجان في الصينية، ولحماً مشوياً، وزجاجة صغيرة من النبيذ. على إحدى الطاولات على يساره ثمة رجل بجبين عريض وعينين دائريتين وشاربين بزوايا قائمة يحدث رجلين جالسين أمامه عن موضوع ما. من الإثنين إلى الإثنين ثمانية أيام، الثلاثاء تسعة، الأربعاء عشرة. لقد مرت عشرة أيام. لمس بيده اليسرى شفته العليا. أحد الجالسين حول الطاولة أمام الثلاجة كان هنا ليلة البارحة أيضاً. له أنف كبير وخدان متهدلان.

حجب النادل عنه رؤية الرجل. كانت سترته ملوثة ببقع. وضع النبيذ والباذنجان باللبن على الطاولة وقال شيئاً ما.

- لم أفهم ما قلت.

- قلت إن شواءكم على النار.

نادوا على النادل من طاولة قريبة، فأسرع نحوهم. كانوا ثلاثة. اثنان على الجهة المقابلة ولهما حاجبان سميكان وشاربان أسودان لكنهما لا يشبهان بعضيهما. الثالث ظهره إلى زبرجد، وله شعر قصير وظهر مشدود، ويرتدي سترة سوداء. جاءت مجموعة جديدة جلست حول الطاولة التي أمامه: أربعة أشخاص، ثلاثة منهم شباب والرابع متوسط العمر. حين وصل الشواء ملأ كأسه بالنبيذ وأخذ يأكل ببطء وبفواصل من التوقف يشرب فيها جرعة من النبيذ مضيّقاً عينيه في كل مرة. كلما فُتِحَ الباب، التفت ونظر نحوه. جاء رجل طويل القامة نحيلها وسحب الكرسي على الطرف الآخر من طاولة زبرجد، ثم غير رأيه، واختار طاولة لشخصين على الجهة الأخرى من الباب وجلس. كان جوّ المطعم مملوءاً بالدخان والضجيج. هناك من يتحدثون ويضحكون بصوت مرتفع. بدا له أن الشاب الثرثار الجالس إلى طاولة لصق الجدار يشبه أحداً يعرفه. حين نظر إليه خفض بصره وأشعل سيجارة. لم يسمع صوت الباب يفتح. مر بقربه شرطي وحارس ليلي. وقفا عند طاولة إلى الأمام قليلاً. ساد الصمت وتركزت النظرات على الحدث. وضع الشرطي يده على كتف الرجل ذي الشعر القصير والسترة السوداء.

- هيا انهض! سنذهب معاً إلى القسم.

سأل أحد صاحبي الشوارب السوداء: "ما الموضوع؟ ماذا فعل هذا الرجل؟"

- ... وتتظاهر بأنك لا تعرف.

- ما الذي تظن أنني أعرفه؟

- إنه مطارد للعدالة. هيا بنا لنذهب!

نهض ببطء وصدر صرير من كرسيه. كان شاباً ذا كتفين عريضتين ووجه جامد.

- من وشى بي؟

- لا أعرف. لعلك تعرف لاحقاً.

حين وصلوا إلى الممر فاجأ الشاب الشرطيَ والحارسَ فدفعهما على طاولة ذي الشاربين قائمي الزوايا وصحبه، وقفز نحو الباب وسط أصوات تحطم الكؤوس والزجاجات، وخرج من المطعم. استعاد الشرطي والحارس رشدهما وركضا خلفه، وأطلق الحارس صفارته لحظة مروره قرب زبرجد. فطنّت أذنه اليسرى. نهض الرجلان ذوا الشوارب السوداء واتجها إلى الباب. صرخ النادل ذو المريول الأبيض من موقعه قرب الثلاجة: "لم تدفعا الحساب!"

التفت ثاني الرجلين الخارجين وقال: "لا تجعلني أبدأ بشتم حسابك". حين انطلق جميع من في المطعم يتحدثون في الوقت نفسه ظل زبرجد جالساً في مقعده منتصب الظهر. انسحقت السيجارة التي كان يمسك بها بين إصبعين من يده اليسرى، فكبسها في المنفضة. شتم الطاهي بصوت مرتفع. أمسك زبرجد الكأس بيده اليمنى وشرب ما تبقى أسفله من نبيذ. أفرغ ما تبقى من الزجاجة في الكأس، ووضع الزجاجة على الطاولة، فاصطدمت بالصحن لكنه لم ينكسر. أكل اللحم المشوي وقد برد. أشعل سيجارة أخرى. قال الرجل المتوسط العمر الجالس أمامه وظهره إليه: "لا بد أن يقبضوا عليه ذات يوم". كان "الكلسلي" قد سرق مسدس المساعد أول "الميري" وهرب، ولم يظهر بعد ذلك. قصير القامة وعلى خده الأيسر (أم الأيمن؟) أثر حبة حلب. كان قد ضرب بطن الرقيب من ملاطية برأسه أثناء الدرس. "هيا انهض! ليس أنت، بل الذي بجانبك. ما اسمك؟" "أنا؟" أمسك بكأسه وشرب بضع قطرات مضيقاً عينيه، وأعادها ببطء إلى الطاولة. كان الشاب الجالس بقرب الحائط ينظر إليه. انحنى على الجالس بجانبه وقال شيئاً ما. فنظر هذا بدوره إليه. أدار وجهه عنهما. في الصورة المعلقة على الحائط، كان "الفاتح" فوق حصانه يسرع به فوق البحر. عينا الصبي تشبهان عيني "فاتحلي" لكن نظراته رقيقة. "تعال هنا املأ هذه المطرة". كان الجو حاراً. في الصورة الأخرى فواكه صيفية في طبق كبير. "عنب؟ لا". رفع السيجارة إلى فمه. كانت قد انطفأت. وضعها فوق المنفضة. مكتوب فوق الزجاجة: "العنقود الأسود". قال له عمر حين كانا معاً في الكرم الطويل الضيق: "ليتك تبقى الليلة، فنأتي قبل شروق الشمس

ونأكل العنب بارداً“. لو أنه مكث ليلة واحدة... رجلٌ ذو وجه متطاول، يرتدي صدرية وربطة عنق، أمسك بمسند الكرسي الذي أمامه وسأله: ”هل سيأتي أحد؟“

- ليس هناك مكان شاغر، يا سيدي.

كان ينظر إلى صدريته. عدّ أزرارها: ستة. ابتعد الرجل. أما هو، فصدريته بخمسة أزرار. للمرة الأولى منذ ستة أيام، صعد هذا الصباح إلى غرفته السابقة فوق، حيث اغتسل ولبس ثياباً داخلية نظيفة. لم يكن يوقظ عاملة الفندق. إذن، سوف ترحل غداً؟ تمسحت قطة بساقه، فارتعش وحرّك ساقه بقوة، لكنها اصطدمت بالكرسي الذي أمامه. التفت بعض الزبائن ونظروا نحوه. تململ. مد يده نحو الكأس المملوءة إلى نصفها، ثم تراجع فسحب يده. من طرف الكتف اليسرى للرجل الجالس أمامه، بدا له الرجل ذا الشاربين بالزوايا القائمة وقد تهدل جفناه. جلس الرجل ذو الصدرية إلى الطاولة على اليسار وانهمك في حديث مع رجل أمامه. ماذا لو أنه يلبس، صباح الغد، ملابسه القديمة ويرخي شاربيه... هز رأسه. بقي في الصحن شريحة باذنجان. هل سيعود إلى الفندق؟ ما زال الوقت مبكراً. يمكنه أن يمشي باتجاه الجسر قبل ذلك. انتظر اقتراب النادل تجنباً لمناداته بصوت مرتفع. استدعاه بحركة من يده، وأخرج من جيبه الخلفي ورقة بخمسين ليرة أعطاها له. حمل النادل الصحون والزجاجة (”هل تريدون شرب هذا؟“. ”لا“) والكأس وابتعد. نهض الرجل متوسط العمر الذي كان جالساً وظهره نحو زبرجد: ”قد تجاوزت السابعة. لأذهب“.

- إلى القتال كالعادة؟

- صحيح.

- اجلس، يا أخي. كم كنا منسجمين!

- لا... وإلا بقي بالي مشغولاً بما يجري هناك. هناك قتال جيد هذا المساء. كِلا الديكين لم يتعرض لأي هزيمة إلى اليوم... أيها النادل!

- دع عنك، سأتولى الحساب.

النادل قادم.

- أتمنى لك وقتاً ممتعاً.

تضاحكا. أخذ زبرجد بقية الحساب ونهض. أحس بدوخة خفيفة. تمالك نفسه. خرج وراء الرجل. انعطفا، بعد قليل، في شارع طويل تضيئه أضواء باهتة، ويتوسطه خط من الأشجار. راح يمشي وراء الرجل تاركاً مسافة كبيرة بينهما. قريباً من نهاية الشارع ثمة مبانٍ قديمة مقببة تمّ تحويلها إلى خمسة دكاكين أو ستة، وآخرها كان مفتوحاً ومضاءً. تجمع أمامه جمهور، فاختلط الرجل بهم، وظل زبرجد على مبعدة. مكتوب على لوح حجري يعلو باب الدكان: "مقهى مصارعي الديكة". هو مكان صغير بثلاث طاولات وجدران يغطيها الشحّار. امتلأ بالزبائن، ووقف عدد منهم في الخارج يشربون الشاي. ثمة ديكان فوق اثنتين من الطاولات الثلاث لهما ريش قصير يختلط فيه اللونان الأحمر والأسود، وساقان طويلتان سميكتان ورقبتان طويلتان. وقفا بلا حركة غير مكترثين للكلام والنقاش حولهما ولا الأيدي التي تمتد من حين إلى آخر لتداعب ظهريهما. صاح الديك في الزاوية بصوت مخنوق، فرفع الآخر القريب من الباب رأسه ونظر إلى الأول. صاح بدوره صيحة قصيرة وتبرّز فوق الطاولة. سُمعت ضحكات. أخرج رجل بدين بعض الشيء، وذو وجه بشوش، منديلاً من جيبه مسح به براز الديك باهتمام واحترام كأنه شيء ثمين، ثم داعب عنقه قائلاً: "أنت أيها السبع الكبير". قال أحد الرجال الواقفين في الخارج: "سوف يهزم هذا الديك".

- ولماذا يهزم؟

- ألم ترَ أنه خَرِئَ؟

- لكن جميع الديكة تفعل ذلك.

ضحكوا كثيراً، وزبرجد أيضاً. يبدو أن الجدل الدائر في الداخل قد انتهى إلى نتيجة ما. قال أحدهم: "هيا بنا". تسلقوا الدرج الحجري العريض المتآكل بجانب المقهى. ثمة، في نهاية الدرج، فوق، ساحة مستوية كبيرة إلى حد ما، وراء القباب، وعلى جانبيها بضعة مصابيح مشتعلة ومعلقة على أسلاك ممدودة. لم يكن جمهور النظارة كبيراً جداً. رجل شاب مهيب القامة يدور حول الساحة أمام الجمهور حاملاً في يده عصا قصيرة. قيل: "إنهم قادمون!" ظهر رجلان

وكل منهما يحمل ديكاً في حضنه بوجهين عابسين شاحبين، ويرافقهما جمع من الرجال وقفوا عند طرف الساحة، في حين تابعا سيرهما إلى وسط الساحة حيث وقفا وأفلتا الديكين على الأرض. قال أحدهما: "هيا يا كبشي!" الآخر لم يقل شيئاً، وجاء ووقف بقرب زبرجد. كان ذا حاجبين سميكين ووجه قاسٍ. اقترب الديكان من بعضيهما بحذر، برأسين منخفضين وريش منتصب على العنق، والتحما. صدرت صرخات قصيرة من الجمهور. ارتعش زبرجد وأحس بسخونة في ذراعه اليمنى؛ إنها ذراع الواقف بجانبه. نظر إليه بطرف عينه. كان فتى بطوله وبشعر خرنوبي. كان ينظر إلى ساحة القتال بفم مفتوح. دار قتال شرس بالمناقير والمخالب والأجنحة. يسقط أحدهما ثم سرعان ما ينهض ويعاود الهجوم على خصمه. أكثر ما يتعرض للهجوم هو العرف، فيحاول كل منهما عض عرف خصمه بمنقاره. فإذا تعرض عرف أحدهما للعض، خفض رأسه وانتفض فحرر نفسه، وإن بصعوبة. بدا له أن الديكين متشابهان ولا يستطيع التمييز بينهما. قفز أحد الديكين وضرب رأس خصمه بقدميه، فتعالت صرخات الاستحسان: "واو!" "انظر إلى مهمازه!"

قال الصبي الواقف بجانب زبرجد: "كان أفضل في الأسبوع الماضي".

- أيهما؟

- هذا الذي له عرف قصير وفي جناحه خط أصفر.

بالفعل، كان في جناح أحد الديكين ريشة صفراء غامقة، وعرفه قصير بعض الشيء. سأله الكهل ذو النظارة الواقف على يساره: "هل هذه أول مرة تأتون فيها إلى هنا؟" لم يرد. ضغط بذراعه على ذراع الصبي. كان متوتراً والجو حاراً. الديكان يقفزان، يضربان، يسقطان، ينهضان، يهجمان. عنقاهما طويلتان، وريشهما بالأسود والأحمر منفوشان. لكن حركتهما تتثاقل باطراد. قفز ذو الريشة الصفراء الغامقة على جناحه وهاجم. فشل في ضرب خصمه وسقط. تململت ذراع الصبي. قال: "فشل في ضربه".

- ماذا؟

- فشل في ضرب المهماز. بدأ يتعب.

عيناه تلتمعان، رموشه طويلة. ابتسم له. شعر فجأة برغبة في تقبيله. أدار وجهه وسحب ذراعه. اقترب الصبي وقال: "إذا استمر على هذه الحالة، سوف يخسر". تثاقلت حركة الديكين. يقفزان بصعوبة، وإذا سقطا، لا ينهضان بسرعة. كان ذو الجناح بالأصفر والعرف القصير أكثر تثاقلاً من خصمه. ينز دمٌ من عرفه. مع ذلك، واصل القتال بعناد. سقط مرتين متتاليتين. اقترب الرجل ذو العصا من الرجل الطويل ذي الحاجبين الكثين وقال له: "اسحب ديكك من القتال إذا أردت، يا أخي تحسين".

- لا تتدخل! هيا ابتعد من هنا!

لم تكن نظراته تبتعد عن الساحة. وجهه جامد، وتتحرك عضلة خده من حين إلى آخر. ذو الجناح بالريشة الصفراء سلّم عرفه وفشل في استعادته لوقت. كان ثقيل الحركة، دامي العنق. عرف خصمه دامٍ أيضاً. انبرى الكهل ذو النظارات: "خسارة هذا الديك، يا تحسين بيه".

- إما يفوز وإما يفطس.

كان الرجل ذو العصا يتحدث إلى صاحب الديك الآخر. غالبية المتفرجين ينظرون إلى تحسين بيه. هناك من صرخوا. قال أحدهم: "هذا موقف غير مسبوق".

- هذه جريمة قتل.

- اسحبوا الديك، يا أخي. افصلوا بينهما!

- نعم، افصلوا بينهما!

لم يدخل أحد الساحة. استمر القتال. الديك ذو العرف القصير لا يهرب. أراد أن يقفز فانهار على الأرض. نهض وتمايل. ضربه الديك الآخر بكل قوته مرتين فانهار. مد عنقه ولم ينهض. تمدد بطوله. تقدم صاحبا الديكين نحو وسط الساحة من جهتين متقابلتين. الديك الذي تمكن من البقاء واقفاً على قدميه، رغم الإنهاك البادي عليه، التقطه صاحبه وابتعد به. الرجل ذو الحاجبين السميكين أمسك الديك ذا الريش الأحمر والأسود والأصفر من ساقيه، ورفعه وضرب به على الأرض، ثم طوّح به في الهواء باتجاه القباب. طال عنق الديك أكثر أثناء طيرانه في الهواء. سقط بين القبتين. أغمض زبرجد عينيه، وسحب

كتفه بعيداً من كتف الصبي. كانت ذراعه كأن فيها شللاً، ويده اليمنى مقبوضة بقوة داخل جيب سترته. أرخى قبضته وأفلت المفتاح الذي في راحة يده. يده تؤلمه.

جاءه صوت يسأله: "هل تشعر بدوخة، يا أخي؟"

فتح عينيه؛ إنه الصبي ذو الرموش الطويلة، وأرنبة أنفه مرتفعة قليلاً، وجبينه ضيق.

- نعم.

أخرج يده من جيبه واستدار ومشى مبتعداً. وهو يهبط الدرجات الحجرية العريضة المتآكلة، مع جمهور الرجال المستغرقين في الكلام والضحك وإطلاق الشتائم، كان الصبي بجانبه، وكذلك كان بجانبه وهو يمشي في الشارع ذي الإضاءة الباهتة والمنصف المشجر. حين عرف الصبي أنها المرة الأولى التي يشاهد فيها زبرجد صراع ديكة، أخذ يحدثه عن القتال الذي خاضه الديك القتيل الأسبوع الماضي. لكن قتال الليلة كان الأفضل كما قال. لم يرَ ما هو أفضل من قتال الليلة.

- لماذا طالبوا بالفصل بينهما، يا أخي؟

- لا أعرف (فكّر) لعلهم خافوا من المضي حتى النهاية... من رؤية النهاية.

أخرج علبة سجائره وعرض عليه واحدة. قال إنه لا يدخن. سأله عن اسمه فقال إنه أكرم. وإذ سأله بدوره، أشعل سيجارته أولاً، ثم قال: "أحمد". سأله، فقال إنه جاء العام الماضي من إحدى البلدات ويعمل لدى حداد في سوق الصناعة. أجوره الأسبوعية قليلة لكنه يتعلم الصنعة. سأله، فقال إنه يقيم عند عمة له مسنة ووحيدة.

- هل ستذهب الآن إلى البيت؟

- لا. هناك فيلم كاوبوي في سينما السراي... هل نذهب معاً، يا أخي؟

- ألن تقلق عليك عمتك إذا تأخرت؟

- لن تقلق، هي معتادة تأخري، ولدي مفتاح.

- هل تمضي وقت الليل وحيداً هكذا؟

- لا، عندي أورهان، زميلي في العمل. توعكت صحته اليوم بعد الظهر.

وصلا إلى الشارع الرئيسي الصاخب والغارق في الضوء. ثمة على الرصيف، أمام المبنى التجاري، باعة مكسرات وحلوى، وبعدهم عند الزاوية بائع كستناء بوجه دائري يعتمر قبعة ويشوي ثمار الكستناء في منقل، ويلتقطها بملقط معدني. اشترى منه ملء كيس ورقي من الكستناء المشوية. مشيا فمد الكيس نحو الصبي. توقف هذا وابتسم ومد يده إلى الكيس. بدت يده أكثر سمرةً من وجهه، وجميلة.

- لحظة، لنفرغه في جيبك.

أفرغ في جيب الصبي أكثر من نصف محتويات الكيس.

- يكفي، يا أخي.

لم تكن ثمار الكستناء مشوية جيداً في وسطها لكنه أكلها بشهية كبيرة. وهما يشاهدان الملصقات أمام السينما وسط صخب أصوات رجالية ونسائية تغني، وضع آخر ثمرتي كستناء في جيبه اليسرى، ودعك الكيس الورقي ورماه على الأرض. اقتربا معاً من شباك التذاكر.

- انتظرني هنا.

- لكن لا...

صعدا الدرج معاً، ولم ينظر في وجه الرجل الذي استلم تذكرتيهما ومزقهما. لم تكن قاعة العرض مزدحمة. في أحد صفوف المقاعد في الوسط، ترك المقعد المحاذي للممر للصبي، وجلس على المقعد الثاني بجانبه. كان على يمينه أيضاً وذراعاهما تتلامسان. قال الصبي: "هذه أفضل سينما". ثمة شعر خفيف بدأ ينبت فوق شفته العليا وعند بداية منطقة اللحية. سأله، فقال إنه دخل السابعة عشرة قبل مدة وجيزة. سأله بدوره، فقال: "ثلاثة و... ثلاثون".

- ماذا تعمل؟

- أشغّل فندقاً من تركة جدي.

مضت عشر سنوات منذ آخر مرة ارتاد فيها السينما. كأنه نسي وجود شيء اسمه سينما منذ تنكّب مسؤولية الفندق. لقد اعتاد ارتياد السينما، من حين إلى آخر، في طفولته ومراهقته، حين كان أبوه على قيد الحياة، وفي المدينة التي أدى فيها خدمته العسكرية. في إحدى المرات (ليس الآن، هذا جديد)،

لمس رجل مجاور فخذه... استأذن شخص ومر أمامهما، فأفسحا له. مر أربعة أشخاص من أمام مقعديهما. وكانت تصلهم ضحكات وكلام الجالسين في صفوف خلفية. مد قدميه تحت المقعد، فلامست ركبته فخذ الصبي، فتركها حيث هي. فجأةً رن جرس من خارج القاعة. شعر برجفة وسحب ركبته. ثم حل الصمت. كانت ساقاه، في بنطلونه الأزرق الغامق، متسقتين مشدودتين. وسط الكلام المتناثر وأصوات احتلال المقاعد، انطفأ الضوء. وفيما تتالت كتابات على الشاشة، بعضها بخط رفيع وبعضها بخط سميك، ظهر من بعيد، قريباً من خط الأفق، فوق منبسط من الأرض بنباتات قصيرة، رجل بملابس سوداء، يعتمر قبعة ويمتطي حصاناً يتقدم ببطء. اقترب وكبر وجهه. قال الصبي: "قبل شهر عُرض فيلم آخر لهذا البطل". اقترب. أحس بالدفء في فخذه، ولم يسحبها. الرجل الشاب الراكب على الحصان دخل إلى بلدة موحشة، وترك حصانه عند نعّال وقصدَ الفندق. يُفهَم من الحديث أن الرجل قادم من حرب، وأنه تأخر في المجيء، والبلدة الآن في قبضة الأشرار، وقد قُتل اثنان من أخوته واستولي على أرضه. في اليوم التالي، قال له النعّال: "لا يمكنك أن تفعل شيئاً وحدك". وبينما كان يشرب كأساً متكئاً على المشرب في خمارة مزدحمة، رأى في المرآة انعكاس رجل ضخم وراءه يمد يده إلى مسدسه، فارتمى على الأرض وأطلق النار عليه. ثم هاجم مصرفيٌاً كهلاً، في غرفة واسعة، حاول التقرب من ابنة القاضي التي صدته وتمكنت من الهرب. قال زبرجد بصوت منخفض: "غريب جداً!" لم يسمعه الصبي؛ كان ينظر إلى الشاشة فاغر الفم.

حين بدأت استراحة لخمس دقائق، سحب ساقه. كان أكرم يحكي له قصة فيلم الشهر الماضي حين انطفأت الأضواء مجدداً. ضغط بذراعه اليمنى. كان يرى الممثلين والأحصنة والعربات كصور مفككة. ساقاهما متجاوران، ولو أنه حرك ساقه قليلاً، سوف يشعر بالتوتر والحرارة مجدداً. ها هو الشاب يقاتل أربعة أشخاص في الخمارة نفسها. انهال بقبضته على وجه واحد منهم. انهار الرجل فوق طاولة تحطمت تحت ثقله. هتف الصبي بحماسة: "هيي!" التصقت ساقه بساقه. بدأ ذلك الشيء ينتصب لدى زبرجد. محافظاً على ثبات جانبه

الأيمن دسّ يده اليسرى في جيبه، وأمسك به وسوّى وضعه. أخرج يده ونظر حوله. فكر في حدث ختانه. ركّب الملقط على رأسه وضغط عليه. بدأ يرتخي. كان يركب ملقط المُطَهِّر حين تكون الشحاطة في يد الرقيب رفيق أيضاً، في تلك الليالي التي كان يأتي فيها الرقيب برفقة فاتحلي ليلعبوا معاً. قال فاتحلي: "أعطني الشحاطة". شد بيده اليسرى ياقة كنزته، فظهره يتعرّق. ذاك الذي جاء إلى الفندق برفقة رجل... أرخى ذراعه، وأبعد ساقه، ونهض واقفاً: "سأغادر".

انتفض الصبي، أمسكه من يده وشده:

- أرجوك لا تذهب، يا أخي أحمد. لنخرج معاً بعد انتهاء الفيلم.

جلس. ظلت يده في يده. كانت راحة يده على شيء من الصلابة. ساقه دافئة. هناك كمين ينصب للشاب في البلدة. أخبرت ابنة القاضي النعّال. الوقت ضيّق، وفوق ذلك دخل ثلاثة مسلحين بمسدسات. وقف اثنان منهما بجانب النافذتين، وصعد الثالث إلى الطابق العلوي. حين ظهر الرجل الشاب فوق حصانه في نهاية الشارع العريض، ركض النعّال نحوه وأفرد ذراعيه وهزهما. انطلق الرصاص من بضعة مسدسات، فأصيب وسقط على الأرض. اندفع الآخر فوق حصانه على طول الشارع، ومال جانباً وقتل في طريقه رجلين مسلحين ببندقيتين، أحدهما في كوة علّيّة أحد المباني، والثاني في برج ناقوس الكنيسة، فسقطا على الأرض. البنادق تطلق النار من الجهتين لكن الرجل وحصانه ظهرا كأنهما ضد الموت. قال بصوت خافت: "سخافة غير معقولة"، والتفت نحو الصبي فرآه مستغرقاً في مشاهدة الفيلم وقد استطال عنقه وانفرجت شفتاه. أغمض عينيه. لقد اعتاد دفئه ويده. ضغط بساقه. ضغط اليد التي في راحة يده ثم أرخاها. لم تصدر أي استجابة من الصبي. لم ينسحب ولا تحرك بل ظل جالساً في مقعده بلا اكتراث. تعرقت راحة يده، فترك يده وسحب ساقه. انتظر اقتراباً منه لكنه لم يقترب. فتح عينيه. في الشارع العريض الموحش ثمة رجلان يمشيان ببطء باتجاه بعضيهما. فجأةً استلا مسدسيهما لكن الرجل الشاب سبق خصمه في إطلاق النار، فسقط المصرفي على الأرض وراح يتلوى. رفع مسدسه بصعوبة لكنه انهار قبل أن

يتمكن من إطلاق النار. يبدو أنه الأخير من فريق الأشرار. لقد تم تطهير البلدة. خرج الناس من الأبنية وكانت ابنة القاضي واحدة منهم، فركضت نحو الرجل الذي ظل واقفاً وعانقته. أضيئت الأنوار. نهضا واختلطا متجاورين بجمهرة الخارجين، سأل أكرم: "كان الفيلم جيداً، أليس كذلك يا أخي؟"

"كان جيداً"، قال وهو يبتسم.

كم من الأكاذيب تحكى فوق الأرض! بالكلام والكتابة والرسم أو بالصمت. كان من السهولة بمكان على وجهاء البلدة أن يكلفوا أحداً قتل الشاب فيتخلصوا منه، لكنه أعطى الوهم بأنه يمكن أن يعمل شيئاً بمفرده. والمشاهد يتواطأ على هذه الكذبة. ما زال باعة المكسرات هناك أمام المبنى التجاري، وكذلك بائع الكستناء في الزاوية.

- أين تقيم، يا أخي أحمد؟
- في بناء باثنتي عشرة غرفة قرب محطة القطار.
- حقاً؟ وهل جميع الغرف مؤثثة؟
- يمكن اعتبارها كذلك.
- كم شخصاً في البناء؟
- أنا وحدي وهناك خادمة تنظف المكان وتطهو الطعام.

وقفا عند المنعطف. هل سيدعوه؟ لقد قال إن لديه مفتاحاً. بدأ قلبه يخفق. الكلام على رأس لسانه: "ما رأيك أن نشرب عندي كأساً من الشاي؟" "لتكن ضيفي الليلة". "ليلة الغد...". كثير ما يمكن أن يقال أو يعمل! عليه اختيار واحد. نظر إلى وجه الصبي، وانتظر أن يأتي العرض منه. له رموش طويلة، وأنف مرتفع، وشفتان منفرجتان. لا يشبه أولئك الذين كانوا يأتون برفقة رجل إلى الفندق. لا شك في حميميته وصدقه. قال: "طاب مساؤك" وركض إلى الرصيف المقابل. التفت ونظر. الصبي ما زال واقفاً حيث تركه. ابتسم له. لوح له زبرجد بيده، واستدار ومضى في طريقه. "سأنظر مجدداً بعد ست خطوات، فإذا وجدته في مكانه لم يزل، سأناديه. واحد... خمسة، ستة... سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة". وقف ونظر: كان الصبي قد اختفى. أسرع في خطواته، فقد أحس بالحاجة إلى التبول. بقرب أرض خالية، نظر حوله: لا أحد في الشارع.

توغل في الأرض، وسمع صفارة حارس ليلي من مكان قريب. لم يكترث وبال عند أسفل الجدار.

كان الفندق غارقاً في الظلام، ولوحة "مغلق" ظاهرة من وراء الزجاج على ضوء مصابيح الشارع. دس يده في جيبه اليسرى. ما هذا؟ كان يريد إعطاءها للصبي لكنه نسي ذلك. أخرج المفتاح وفتح الباب. الفتاة الطويلة قالت إنها تحتفظ في محفظتها دائماً بثمار كستناء الحصان. كانت يداها سمراوين. يقول صديق لي إن ذوي الأيدي السمراء يكونون طيبي القلب. أقفل الباب وتربسه. كان الجو دافئاً في الداخل. لم يشعل ضوء قاعة الاستقبال. دخل الغرفة فوراً وأغلق الباب. أشعل الوتّاسة. جلس على حافة السرير. خلع الحذاء والجوارب وانتعل الشحاطات. أخرج من جيبه اليسرى علبة السجائر وعلبة الثقاب ووضعهما فوق الخزانة الصغيرة. الساعة تشير إلى الحادية عشرة وعشرين دقيقة. نقل ثمرتي الكستناء إلى جيبه اليمنى. التف إلى الطرف الآخر من السرير وخلع ثيابه. أبقى على سرواله الداخلي. علق ملابسه على المشجب. غسل قدميه، وجففهما بمنشفة الفندق. دفع باللحاف بعيداً إلى الأسفل وتمدد فوق السرير. المنشفة الأخرى فوق حاجز السرير المعدني. قاوم الديك ذو الألوان الصفراء والحمراء والسوداء إلى النهاية، وكان عنقه أطول وهو يطير في الهواء. كان وجه الرجل جامداً وكذلك وجه الهارب. "هل تشعر بدوخة، يا أخي؟" كان للصبي صوت دافئ خارج من الصدر. "ثم ساعد صديقه على الهرب من السجن في اليوم الذي كان مقرراً أن يُشنق فيه. طاردوهم فوق الأحصنة. أصيب حصان صديقه في الممر الجبلي، فأمسكوا به، ونجا الآخر. وحين علقوا مشنقته في إحدى الساحات، قطع الحبل برصاصة من مسدسه. حدثت فوضى. اندفع بحصانه و..". انطفأت الأضواء واسودّ وجه الصبي. ظل ضوء الغرفة مشتعلاً طوال أسبوع. إنها الليلة الثالثة عشرة. في مثل هذا الوقت، طُرق الباب تلك الليلة. معطفها البني مفتوح الأزرار... ثم، في الغرفة، على حافة السرير، كنزتها السوداء منتفخة عند الصدر. بدأ ينتصب. وجه المرأة فقد وضوحه. هي سمراء ولها أنف رفيع وشفتان رقيقتان. عيناها سوداوان وشعرها أسود ورموشها طويلة. لكن هذه المواصفات يمكن أن تنطبق على

عدد كبير من النساء، بل الرجال أيضاً، حتى على امرأة قبيحة أو رجل قبيح. ضغط بيده اليمنى على سرواله الداخلي من الأمام وحركها فوقه. قال فاتحلي: "هات هذه الشحاطة". كان مستيقظاً وينظر من رموشه من غير أن يكشف نفسه. كان وجهه أجمل بعد في الضوء الليلي الخافت للمهجع. إنها المرة الثانية التي يأتي فيها برفقة الرقيب رفيق. لم تكن تلك اللعبة ترتب له فقط بل لآخرين غيره. الحراس يعرفون ذلك. صباح اليوم التالي كانوا يعلقون ساخرين: "أليس هناك من يريد أن يغتسل؟" لقد تجاوز الرقيب رفيق البطانية بهدوء، وراح يحك بالشحاطة من فوق السروال. أخذ يكبر بسرعة ويمتد نحو بطنه. تفقّده بيده الأخرى وقال بصوت مكتوم: "يا إلهي! لمن منحتَ هذا؟" كان يحك الشحاطة بحركات سريعة من غير أن يضغط كثيراً. أطلق العنان لنفسه وأنَّ كمن يهذي في المنام. قال الرقيب رفيق: "أيها السافل!" كان يحدث أحياناً في أوقات الاستراحة أن ينظر إليه فاتحلي ويقول: "تعال هنا! املأ هذه المطرة". أو: "أسرع واشترِ لي علبة ثقاب". فيأتي إليه وفي يده بندقيته... "وامسح هذا بطريقك". كان العريف خليل يوبخه: "هل أنت خادم لديه؟" "لا، أفعل ذلك برغبتي". "إنه شخص سافل. لا يقدر قيمة المعروف". لم يكن دافعه عمل معروف لأحد، بل ربما لأنها الطريقة الوحيدة للتقرب منه. كان يقال أن نساء الماخور لا يعجبنه، وأنه كان يُحضِر عشيقته من إسطنبول إلى بيت امرأة عجوز حيث يلتقيها.

استدار إلى اليسار ومد يده إلى علبة السجائر فوق الخزانة الصغيرة بجانب السرير. كانت عشيقة المستعمِر نائمة في الصورة المعلقة على الجدار. "نعم، إنها تنام. لكنها تعمل جيداً". أشعل سيجارة. شد اللحاف فوقه. إذن، هي سترحل غداً. لم تكن على علم بوفاة خالها. جاء رجل من القرية، قبل خمس سنوات أو ست، وقال له: "جالق علي مات! العمر لكم". قال إنه حين همّ بالنهوض عن مائدة الطعام، مساء الجمعة، وقع على الأرض. مددوه في فراشه، ومات في الصباح. سأله الرجلُ عن زينب، فقال له إنها تركت الشغل هنا وسافرت إلى إزمير للالتحاق بعمل. سيندلّي قرية جبلية نائية لا أحد يأتي منها إلى الفندق إلا نادراً. وقبل ثلاث سنوات جاء من هناك رجلان، فقال لهما:

”لا غرف شاغرة في الفندق“. نفض رماد سيجارته ببطء. إنها نائمة الآن فوق في إحدى الغرفتين ذات السقف المائل. كانت في زمن مضى غرفة الخادمة العجفاء قدرية التي كانت تتخمّر حتى أمام رجال البيت. لقد سمع بذلك في طفولته حين كانت أمه تحكي عن ذلك لإحدى النساء. قالت إن زوجة رستم بيه، سمرا هانم، كانت قبل الزواج واحدة من حسناوات إزمير. ويقولون عنها: ”ابنة القول[6] آغاسي“. ذات ليلة، بعد مدة طويلة من استغراقهما في النوم، قال رستم بيه لزوجته: ”اشتهيت مربى الفريز من صنع يديك“. تحركت الزوجة وقالت: ”سأحضره لك من فوق“. ”دعك من ذلك. ليس ضرورياً أن آكله الآن“. ”لا، سوف أحضره لك“. صعدت الدرج ببطء وهدوء كي لا توقظ النائمين. سمعت أصواتاً مكتومة من إحدى الغرف التي مرت بها في طريقها إلى المطبخ. فاقتربت من الباب بهدوء وأصاخت السمع. الخادمة تقول: ”عضي نهديّ أيضاً، عضي الحلمتين“. ثم تئن وتقول: ”آه، آلمتني بالعض، سأصرخ“. ”اصرخي لأقطعهما بأسناني“. كلام معيب. نسيت سمرا هانم المربى وهبطت الدرج وهي ترتجف غضباً. أخبرت زوجها بما يحدث، وطلبت منه طرد الخادمتين غداً بلا إبطاء. في الصباح، رحلتا مع بقجة ثياب تحت إبط كل منهما: الخادمة الصغيرة تبكي، وقدرية تواسيها: ”لا تبكي، يا بنت. لن نجوع. لا تخافي فأنا معك“.

6 رتبة عسكرية من الفترة العثمانية، ترتيبها بين النقيب والرائد.

كبس السيجارة في المنفضة. المرأة في الصورة المعلقة على الحائط غير واضحة على الضوء الليلي الخافت. ربما هذه المرأة أيضاً، في الليالي الطويلة الحارة، مع واحدة من الفتاتين الزنجيتين، أو ربما مع كلتيهما معاً... ”أيها السافل“، قال بصوت منخفض. استقام في السرير والتقط المنشفة من فوق حاجز السرير المعدني. كوّرها في يده ورماها نحو الحائط. لكن المنشفة انفلشت وسقطت على الأرض. هبط من السرير والتقط المنشفة. فركها ونفضها وكحت ما تبقى بيده، ثم علّقها على حاجز السرير المعدني وبسطها. شد الصورة المعلقة على الحائط واقتلعها والمسمار. بقي على الحائط أثر

بأربع زوايا بلون العاج الفاتح. ذهب إلى النافذة فأزاح الستارة وفتحها، وألقى الصورة في الباحة، ثم أغلق النافذة والستارة. نظر إلى الباب الصغير الواقع بين النافذة والحائط، واستدار واقترب من السرير. عضلات ذراعيه مشدودة. هل سينام؟ ربما، في زمن مضى، غطى هذا اللحاف المغلف بأطلس خمري ابنة القول آغاسي النائمة بجانب رستم بيه. لا يستطيع تصور رستم بيه في شبابه، هو الذي لم يعرفه إلا بشعره الشائب والخفيف، وجفونه المنتفخة، وخديه المتهدلين. كانت أمه تقول عن رستم بيه إنه "كان في شبابه ممشوق القوام". كانت تخاطبه بـ"أخي الكبير" مع أن الفارق بينهما تسعة أشهر تماماً. ربما نام هاشم بيه مع تلك الخادمة، برضاها أو غصباً، لأنه لا يستطيع مضاجعة زوجته الشابة التي اقترب أوان وضعها. وإذا حبلت الفتاة، ألصقوها بأحد أقربائها الفقراء. حين أدرك الرجل الوضع تركها ورحل. هل سترحل؟ لمس اللحاف. هل كانا يلقيان باللحاف من فوقهما؟ ربما قتل فاروق، شقيق رستم بيه الذي يصغره بسبع سنوات، نفسه في التاسعة عشرة، بسبب غرامه بزوجة أخيه. كان ذلك بعد ثلاث سنوات على ثورة الحرية[7]، في نهاية الصيف قبيل انتهاء موسم العنب، وكانت العائلة في كروم آزماكالتي على أرض الإقطاع كعادتها كل عام. قال لأمه ذات يوم إنه يريد العودة إلى البيت، واعداً بالعودة صباح اليوم التالي. في ذلك اليوم، انتظرت نبيلة هانم، أمه، إلى الظهر، ثم قالت لهاشم بيه إن ابنها لم يعد طالبةً منه أن يأمر بإعداد العربة ووجهها في غاية الشحوب. قالت الكنة: "لآتي معك يا سيدتي". "ابقي أنت، يا ابنتي. لترافقني سعيدة". قالت والعربة المزودة بمظلة تمضي بهما: "الولد ليس بخير". حين دخلتا إلى البناء رأتاه معلقاً من عنقه في تجويف الدرج. منتعلاً حذاءه، مرتدياً ملابسه الصيفية، ملويّ العنق. انطلقت صرخاتهما وانهارت أمه على الأرض. ركض سائق العربة والتف من حول المنضدة (أهي هذه؟) المقلوبة في منتصف الدرج، ومد يديه نحو الفتى. طارت بضع ذبابات من فردتي حذائه. ظلت نبيلة هانم مضطجعة طوال يومين مغمضة العينين، لا تتحدث مع أحد، وترتجف من حين إلى آخر، إلى أن ماتت.

7 انقلاب "جمعية الاتحاد والترقي" عام 1908 على السلطان عبد الحميد في ما يعرف باسم المشروطية الثانية حين فرضوا عليه الدستور.

ارتعش. فرك صدره وعنقه وذراعيه. خرج من الغرفة، ونظر لوقت في تجويف الدرج في الظلام. عبرت سيارة مسرعة من أمام الفندق فاهتز البناء. هز رأسه ومشى. صعد إلى الأعلى، وفتح باب غرفة عاملة الفندق. عبس ومد يده إلى مفتاح الإنارة وأشعل الضوء. كان رأسها وذراعاها خارج اللحاف. في السابق، كانت غالباً ما تترك قدميها خارج اللحاف أيضاً بباطنهما المسودّين. اقترب من السرير. كان رأسها مائلاً إلى اليسار، ووريدها بارز. دس يده تحت المخدة، ووجد المنديل هناك. شد اللحاف إلى الأسفل. انحسر قميصها وانفرج ساقاها. وضع يده على فخذها وحركها صعوداً. كان دافئاً. حرك أصابعه في كتلة الشعر، قبض بيده، شدَّه، تململت المرأة. تمدد بجانبها وفك أزرار قميصها وداعب نهديها. إنهما ممتلئان صلبان. سوّى وضع رأسها. ثمة تغضنات على جبينها وحول عينيها. تنفسها منتظم. قبّلها من فمها نصف المفتوح. تحرك هبوطاً وعض نهدها.

"أف يا كلب!" قالت بصوت خافت.

- استيقظي يا بنت!

رفع رأسه ونظر إلى وجهها: إنها نائمة. خلع عنها سروالها الداخلي ووضعه فوق اللحاف. لم يعد يريدها نائمة. ضربها بركبته، هزها، فتحت المرأة عينيها وأغمضتهما.

- هل جئت، يا آغا؟

- لا يمكنك الرحيل غداً. لقد مات خالك.

- من مات؟ أمي؟

- بل خالك. مضى وقت طويل على موته. أخبرني واحد من أهل القرية.

- لعله يكذب.

- بل صحيح. لقد مات.

ظلت صامتة. أمسكها من كتفيها وهزها.

- انهضي!

شدها نحوه. أسندت المرأة يديها إلى السرير وهي تنهض. وجهها جامد وتنظر بعينيها الناعستين نحو الحائط. هزها مرة أخرى.

- هيا استيقظي!

- استيقظت، يا آغا.

- اخلعي قميصك.

- أيجوز ذلك؟

- أقول لك اخلعيه!

تحركت يميناً ويساراً فخلّصت تنورتها، بمساعدة منه، من تحتها، وخلعت القميص ووضعته فوق حاجز السرير المعدني. كانت تتجنب النظر إليه وتحاول حجب صدرها بذراعها اليسرى. أمسك بذراعها وخفضها وأسند وجهه فوق صدرها. صرّ السرير حين وقعا معاً. سمع صوتاً من تحت السرير، فلم يكترث. راح يقبّل عنقها ونهديها. المرأة صامتة. بدأ ينتصب وإذا ضغط به، ارتخى، فلم يدخل. انتظر بعض الوقت وقلبه يخفق. تحسسه. حرك يده وضغط فارتخى مجدداً وذبل. شعر ببرودة الجليد في كل جسمه. استقام جاثياً على ركبتيه. عينا المرأة مغمضتين. انقض عليها فجأةً وضغط بكلتا يديه على عنقها. قفزت المرأة وفتحت عينيها، في حين أغمض هو عينيه. اصطدمت ركبتها بما بين فخذيه، فضغط على عنقها أكثر تحت وطأة الألم. حدثت حركة في المنطقة الصلبة تحت إبهامي يديه. سمع حشرجة. المرأة ممسكة بمعصميه تضغط عليهما وتشد وجسمها ينتفض. راح يضغط بكل قوته. أصابعه ووجهه مشدودان، وفي أذنيه طنين. ثم ارتخت اليدان الممسكتان بمعصميه، وتوقف الجسم الذي تحته عن الحركة. أفلت يديه وانزلق هابطاً من السرير، نظر إليها فرأى عينيها وفمها مفتوحين. ركع على الأرض وأسند رأسه إلى حافة السرير. أحس بألم في ذراعيه، فحرّك أصابعه. فمه جاف. انخفض طنين أذنيه. احتك بساقه شيء دافئ طري. رفع رأسه بسرعة: إنه القط. أخذ يداعبه من رأسه حتى ذيله. أسند القط قائمتيه الأماميتين إلى ساقه. أثناء مداعبته يبرز ظهره حيثما مرت عليه يده، ويصدر خرير رضى، وأحياناً يغرز أظفاره في فخذه. أحس بدفء القط وحيويته تحت يده. بدأ ينتصب. دفع الحيوان بعيداً ونهض

واقفاً. فتح الباب، ثم عاد فارتدى شحاطته، وأخذ سرواله الداخلي. طرد القط، وأطفأ الضوء، وخرج وأغلق الباب. هبط الدرج بسرعة ودخل الغرفة. كان المصباح الليلي مشتعلاً. علق سرواله الداخلي على حاجز السرير المعدني، وفرش المنشفة فوق السرير، شد المخدة وانقض عليها. قذف مطولاً وهو يلهث ويئن. كان الفندق غارقاً في الصمت. مسح الرطوبة من فوق بطنه وعلق المنشفة على حاجز السرير المعدني. نشرها وارتدى سرواله الداخلي. سوّى وضع المخدة وتمدد. شد اللحاف وتغطى به. ذراعاه خارج اللحاف. عيناه تنظران بثبات إلى المصباح المتدلي في طرف الأنبوب المعدني المتصل بالسقف. سمع طقطقة خفيفة. قفز واقفاً. حبس أنفاسه وأصاخ السمع. الصوت قادم من فوق. ركض حافي القدمين. على الدرج الواصل إلى العلية، أبطأ خطواته. كان القط يخرمش باب الغرفة. ماءَ حين رآه. كان معتاداً رؤية المرأة طوال النهار. لكنه لم يكن يفعل هذا، في السابق، حين يبقى في الخارج في الليل. في بعض الليالي وزبرجد فوق المرأة، كان القط يخمش مشمع الأرضية تحت السرير. فكان يقفز إلى الأرض ويطرده. أشعل ضوء الممر، فماء القط. ماذا سيفعل به؟ إن طرده خارج الفندق، فقد يقفز إلى الباب والنوافذ ويملأ الشارع ضجيجاً. ماذا لو حاصره في إحدى زوايا الغرفة و... فتح باب غرفته وناداه. ماء القط. ناداه مرة أخرى لكنه لم يستجب. انتظر وقتاً. هز رأسه ومشى. حين فتح باب الغرفة الأخرى دخل القط فدخل وراءه. على الضوء الخافت القادم من الممر رآها ممددة على السرير بطولها. ليس هناك شيء واضح، كأنها نائمة. كانت عارية، فغطاها باللحاف. عاد إلى الباب فأغلقه. أشعل الضوء وانحنى ونظر تحت السرير، قال: "بست". أمسك بفردة من الشحاطات المهترئة وقذفه بها. ركض القط ولاذ بالزاوية على يمين الباب. حمل الإبريق النحاسي من فوق الصندوق بقرب السرير واقترب من القط. رفع الإبريق فانسكب الماء منه على كتفه وصدره. مرق القط من أسفل الحائط وقفز فوق الصندوق ومنه إلى النافذة فخمش زجاجها، واستدار وانكمش على نفسه، وماء مواءً مراً. جسده متوتر. كان ينظر إلى عينيه. اندفع نحوه. قفز القط فجأةً في الهواء متجهاً إلى وجهه فرفع يديه محتمياً، لكن

الصدمة وقعت وشعر بألم في جبينه. جمد حيث هو شاحب الوجه. ابتلع ريقه. وضع الإبريق بهدوء على الصندوق. نظر في المرآة المعلقة على الحائط. إنه خدش صغير. مسح قطرة دم قريبة من حاجبه. لم يكن هناك نزف. إنه أمر مثير للاستغراب أن يتحول هذا القط الرزين الصبور إلى حيوان بري. مشى متمهلاً وفتح الباب وأفسح المجال ودعا القط: "بست". حدثت حركة تحت السرير. ركض القط واجتاز الباب إلى الممر. أطفأ الضوء، وخرج وأغلق الباب، ورأى القط كامناً في الزاوية. أخذ من المطبخ مقلاةً هي الأصغر بين ثلاث معلّقة على الحائط. خبأها وراء ظهره وخرج إلى الممر. نادى القط بصوت لطيف. ماء القط. ركع على ركبته وابتسم للقط: "تعال، تعال، لا تخف". مد يده اليسرى كأنه يريد أن يعطيه شيئاً. نهض القط واقترب منه متمهلاً. تمسح بيده. يا للحيوانات كم تنسى بسرعة! شد بيده على مقبض المقلاة، وبيده الأخرى راح يداعب ظهره ويدير رأسه بعيداً منه. رفع المقلاة، وسحب يده من عنق القط وضربه بها وقفز واقفاً. راح القط يتمرغ على الأرض وينتفض جسمه. ضربه مرة أخرى على رأسه. توتر ذيله وساقاه وارتعش ثم توقف عن الحركة. إحدى عينيه انفجرت خارج محجرها. تلطخ المشمع بالدم. ترك المقلاة على الأرض وحرك أصابعه. قبل هذا كانت هناك قطة أنثى. قالت عاملة الفندق: "إنها غائبة منذ ثلاثة أيام، هل يمكن أن تعود؟" "ثلاثة أيام؟ لا بد أنها ماتت. كان أبي يقول إن القطط تخفي موتاها". "لا نستطيع الاستغناء عن قطة". كان قد طلب هذا القط من الحلاق. كان صغيراً جداً حين أحضره إلى الفندق. أمسك به من ذيله ورفعه، وذهب إلى النافذة ففتحها. لم يكن هناك أحد في الشارع. رمى به فسقط وراء الرصيف. كان الجو بارداً في الخارج، فأغلق النافذة. حمل المقلاة إلى المطبخ وغسلها وعلقها على الحائط. كان هناك صحن كبير نوعاً ما فوق موقد الكاز. انحنى عليه فوجد أنها عصيدة كجمك. أحس بإرهاق مفاجئ في ساقيه، فتمسك بحجر حوض الجلي. ركع وأسند رأسه على الحجر. تناقص اهتزاز كتفيه بالتدريج. تمسك بالحجر ونهض واقفاً. قال لنفسه: "شيء غير معقول". أطفأ أنوار المطبخ والممر ونزل إلى الطابق الأرضي. مشى نحو السرير ورأى زوج شحاطاته على الأرض، فانحنى وأخذهما، وتركهما تحت

المغسلة على المشمع. غسل قدميه مرة أخرى. تمدد على السرير وتغطى باللحاف. نظراته متجهة إلى المصباح المتدلي من السقف بواسطة أنبوب رصاصي. في زمن مضى، جعل عاملة الفندق تمسح الغبار عنه، ذات يوم، بقطعة قماش جافة. أمسك لها كرسياً وضعه فوق السرير، وقد وضع تحت قوائم الكرسي أربعة صحون نحاسية منعاً لتمزق اللحاف. ”الفندق في عهدتك. وسوف تحتاج عاملة“. ارتفعت فوق أصابع قدميها الكبيرتين العاريتين. تظهر أطراف سروالها الطويل الموشى بالأسود ويداها ترتفعان إلى الأعلى... ”تم الأمر، يا آغا“. انحنت وتمسكت بكتفيه كي تنزل من الكرسي إلى السرير. ”قصّي أظفارك“. كانت هذه الغرفة تُمسح مرة كل أسبوعين رغم أن أحداً لا يشغلها... فتظل جاهزة... في بناء باثنتي عشرة غرفة... الفندق في عهدتك... في عهدتك... قرويون، مزارعو تبغ ينتظرون قبض ثمن منتجاتهم، أعضاء أحزاب، أطباء أسنان، خارجون من مستشفيات، مرضى لم يجدوا أسرة في المستشفى، مجندون يلتحقون بالخدمة العسكرية، باعة البازار، تجار ماشية، باحثون عن عمل، ملتحقون بوظيفة، معلمو مدارس، تلاميذ جاؤوا لحضور الامتحانات، محامون، أقرباء جاؤوا لحضور جلسة محاكمة قريب لهم، ممثلو المسارح الجوالة، ثنائيات لليلة واحدة، الرجل الذي قال إنه ضابط متقاعد، عاملة الفندق، القط، المتأ... استقام فجأة. كان الجرس يرن. في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ رن الجرس ثلاث مرات أيضاً. ألا يرى يافطة (الفندق مغلق)؟ انتظر. لا صوت. تغطى باللحاف واضطجع. أغمض عينيه. ترى، من يكون؟ شخص طريد؟ مسافر متأخر؟ رجل منفصل عن زوجته في الفراش؟ عاهرة مطرودة؟ امرأة قادمة بقطار أنقرة المتأخر؟ ”إلى الجحيم“، قال بصوت خافت.

## الإثنين

استقام في السرير. الجرس يرن. ضغط على مفتاح المنبه فوق الخزانة الصغيرة فأسكت صوت الجرس. كان قد ضبط المنبه، قبل أن ينام ليلة

البارحة، على السابعة والنصف صباحاً. على أمل أن ينصرفا مبكراً. لقد نام جيداً لكنه قفز في وقت ما من الليل على صوت دبور ينقض على وجهه، ففتش السرير. كانت الساعة الثانية وعشر دقائق. ذانك الرجل والمرأة اللذان جاءا قبل عشرة أيام، ليل الخميس، وباتا ليلة واحدة في الغرفة 6، هما الآن في الغرفة نفسها، تحت الجثة، من غير أن يعرفا، في حيوية الشباب ودفئه... حين دخلا من الباب، مساء البارحة، عرفهما فتحرج، لسبب ما، من ردهما على أعقابهما. "تحياتي. لقد جئنا". بدا الرجل كأنه ينظر إلى صديق أو قريب. أخرج المفتاح من درج المكتب ومده إلى الرجل: "لم يشغل الغرفة أحد بعدكما. ليلة سعيدة". التفتت المرأة وابتسمت وهي تصعد الدرج مع شريكها. هبط من السري، قبل أن يغسل وجهه بالصابون. نظر في المرآة إلى الخدش الصغير فوق حاجبه الأيسر. كان هناك احمرار طفيف حيث اقتلع أثر الخدش المتيبس البارحة.

تناول على الفطور، مع ثلاث كؤوس من الشاي، قليلاً من الجبن والكعك بلا شهية. كان بلا شهية دائماً، يشرب الشاي بكثرة، ويأكل على الغداء والعشاء بضع لقيمات من الخبز البائت والجبنة. صباح البارحة اشترى أربع كعكات من البائع الذي مر أمام الفندق. لم يبقَ لديه شيء من الخبز. فلم يخرج خارج الفندق منذ تلك الليلة. أسوأ ما في الأمر الإبقاء على الفندق مفتوحاً. كانت قطعة الكرتون معلقة في مكانها على الحائط: "يُغلق الباب في منتصف الليل". وكان يرد السائلين عن غرفة أو سرير بالقول إنه لا شواغر. ظهيرة البارحة صعد إلى غرفة المتوفاة فأقفل بابها وعلق المفتاح في المطبخ، ورمى عصيدة كجمك في علبة القمامة بعدما بدأت تفسد، وأخذ العلبة إلى الباحة حيث تركها في الرواق المسقوف. نهض، ونقل الصينية إلى غرفة المؤونة ونظّف أسنانه، ثم عاد إلى طاولة المكتب. مد يده إلى جيبه لكنه غيّر رأيه فسحبها، لأنه تذكر أنه لم تبقَ لديه سجائر. سيشتري حين يخرج. كان عليه أن يودع النقود في مكتب البريد ثم يقصد القسم، قسم الشرطة.

فتح الدفترين السميكين فوق الطاولة. لقد توقف عن اختراع أسماء لنزلاء مفترضين، وأخرج سجل العام الماضي من الصندوق تحت الدرج، وراح ينقل

أسماء نزلاء الأيام المناظرة من العام الماضي إلى فيش يومي وإلى السجل. اتضح أن الثالث من نوفمبر صادف العام الماضي يوم السبت. في تلك الليلة، كان ثمة ثمانية نزلاء. نقل أسماء نزلاء الغرفة 6 بلا تغيير. كانت أصوات حركة تأتيه من فوق. أغلق الدفترين، ووضع الفيش اليومي في الدرج فوق الفيش الآخر. لقد انتهى من ضبط حساب أكتوبر. أمسك ورقة بريدية لتحويل النقود وراح يملأ خاناتها بالبيانات. سمع صوت إغلاق الباب فوق. تباطأ وقع الأقدام في الطابق الثاني لمدة وجيزة. ترك القلم من يده. رآهما يبتسمان وهما يهبطان الدرج. وجه المرأة مصبوغ، ووجه الرجل شاحب. لعلهما آخر نزيلين في الفندق.

- صباح الخير.

- لكم أيضاً.

مد الرجل يده إلى جيبه الخلفية.

- دعوا عنكما. كنتما ضيفيّ ليلة البارحة.

- هذا لا يجوز. تعاملوننا بـ...

- أرجوكم لا تلحّا عليّ. هل لديكم سيجارة؟

مد الرجل علبة سجائر بيده اليسرى وأشعل له السيجارة بقداحة صفراء غامقة في يده اليمنى.

- أنتم في غاية الطيبة.

تراجع في مقعده إلى الوراء واصفر وجهه.

- لا علاقة للأمر بالطيبة.

- نلتقي قريباً.

- قريباً؟ سيبقى الفندق مغلقاً لزمن.

- لماذا؟ ماذا حدث؟

- هناك تغييرات وأعمال نظافة وما إلى ذلك. قد يستغرق الأمر شهراً.

- أحقاً؟ على أي حال لتبقَ بخير.

"طاب يومك"، قالت المرأة.

- طاب يومكما.

خرجا معاً. واضح أنهما لم يعودا يخشيان الظهور معاً أمام الناس. انتهى من تدخين سيجارته وأطفأها قبل أن يمسك القلم. ملأ ورقة تحويل الأموال وفتح الخزنة. أفرغ النقود من المظروف المخصص للفندق على طاولة المكتب. وضع النقود التي سيرسلها إلى فاروق بيه وورقة التحويل البريدي في جيبه الداخلية. وضع الراتب الشهري لعاملة الفندق في المظروف الخاص بها. بعدما وضع إيرادات الأيام الثلاثة الأولى من نوفمبر في مظروف الفندق، دسّ ما تبقى من راتبه الشهري في جيبه. أعاد المظاريف إلى أماكنها. نقل ليرة واحدة من الطاسة النحاسية في الرف العلوي إلى طاسة الرف السفلي، وأغلق الخزنة. أخذ فيش الأسبوع من درج المكتب، وطواه طبقتين ووضعه في جيبه. الساعة قاربت التاسعة.

خرج من الفندق وأقفل بابه. كان يوماً مشمساً دافئاً. بدا له أن من يصادفهم في الطريق كأنما يجري اقتيادهم إلى مكان ما بلا إدراك منهم. في مكتب البريد، انتهى الرجل ذو الحدبة الطفيفة والشعر الشائب أمامه في الدور من عمله، فأودع زبرجد النقود. قال له موظف البريد وهو يعطيه إشعار القبض: "ما صلة قرابتكم بفاروق كججي؟"

- ابن خالي.

خرج من مكتب البريد. عند تقاطع الطرق انعطف يميناً. مشى ببطء. دخل من الباب الزجاجي المزدوج لقسم الشرطة القريب من القصر العدلي الذي سبق ومر أمامه في طريقه إلى مكتب البريد. كان يشم هذه الرائحة نفسها كلما عاد من الخارج ودخل إلى الفندق. كان هناك جالسون على المقاعد في الممر العريض، ومن يدخلون عبر أبواب ويخرجون منها. أخرج الفيش واقترب من الباب الموارب على اليمين، لكنه توقف قبل أن يصل. سمع أصواتاً قادمة من الداخل. سمع صوتاً رجالياً خشناً يقول: "اكتب! وحين سئلِ، نقطتان فوق بعضهما، قال إنه هرب بإرادته الخاصة". طقطقت مفاتيح الآلة الكاتبة. ثمة صوت امرأة تبكي. الصوت الأول: "اسكتي يا امرأة! وإلا سأطردك خارجاً". سأله شرطي في يده أوراق كان قادماً من الجهة الأخرى: "ماذا لديك؟ ما الذي تنتظره؟"

- أحضرت هذه.

- ما هذه الأوراق؟

- فيش يومي خاص بالفندق.

- هه! خذها إلى تلك الغرفة.

دخل الغرفة التي أشار إليها الشرطي وراء نادل مقهى يرتدي صدرية بيضاء يحمل في يده صينية ذات ممسك طويل، ومملوءة بكؤوس شاي وفناجين قهوة مغطاة بأطباق صغيرة، ويلوّح بها بلا مبالاة. "لماذا كل هذا التأخير؟" "انتظرت ليتخمر الشاي جيداً، يا أخي". كان في الغرفة الواسعة خزانات ذات واجهات زجاجية مملوءة بالأضابير، وثلاث طاولات يجلس خلفها شرطيان ورجل بملابس مدنية ونظارات. قدم إليهم النادل كؤوس الشاي واتجه نحو

الباب. ألقى الرجل في كأسه قطعتي السكر كلتيهما، ونظر من فوق نظاراته وسأله: "هل تريد أن تقول شيئاً؟"

- أحضرت فِيَش الفندق.

- ضعه هنا.

وضعه فوق دفاتر سميكة كانت مركونة عند طرف الطاولة الغارقة في الفوضى. راح الرجل يحرك السكر في الشاي. كان كهلاً، وذا وجه مدوّر، ورائق. يداه سمراوان، وفي إصبعه الأوسط...

- حسناً، ماذا تنتظر؟

... خاتم... صحا من شروده: "اعتدت أن أرسل هذا الفِيَش مع بائع الصحف. سأحضرها بنفسي بعد الآن".

- حسناً! أحضرها.

قال الشرطي الجالس وراء الطاولة على اليسار: "فليرسلها بالبريد".

ضحكوا. تغضن وجه الرجل حين ضحك. استدار زبرجد ومشى، وخرج من الغرفة، فالقسم. كان يوماً مشمساً دافئاً. ثمة حافلة تتحرك ببطء، بعدما أنزلت عدداً من الركاب أمام القصر العدلي، ظهر صبي في بابها الخلفي نصف المفتوح ينادي: "إزمير، إزمير، إزمير!" حين تسارعت حركة الحافلة شد الباب فأغلقه. حين كانوا يمشون في الوحدة العسكرية كانوا ينشدون المارش العسكري: "أنقرة، أنقرة، أنقرة الجميلة!" سيجارة... اتجه نحو بقالية في الطرف الآخر من الشارع حيث اشترى سجائر وعلبة ثقاب وشاياً وسكراً ومأكولات معلبة وسجقاً وخبزاً وجبناً.

حين فتح باب الفندق ودخل تشمم الهواء. إنها الرائحة المعتادة نفسها. فتح الرزمة في غرفة المؤونة، ووزع محتوياتها على أماكنها، ووضع السجائر وعلب الثقاب في الدرج الأوسط لطاولة المكتب. وفيما اتجه نحو الدَرَج ينوي ترتيب الغرفة 6، فُتِحَ باب الفندق. دخل شابان أحدهما متوسط القامة، والثاني أقصر منه، وشكلهما الخارجي مرتب.

- مرحباً، أأنت مدير الفندق؟

- أجل، لكن غرفي محجوزة.

- لسنا بوارد الإقامة. أرسلنا سيد من القرية.
- من القرية؟ أي سيد؟
خرج صوته خشناً. ابتسم الفتى ونكز رفيقه القصير بكوعه.
- هل سمعت؟ إنه يتساءل: أي سيد؟
"سمعتُ"، قال الآخر.
- وأي سيد غيره؟ السيد البيطار. جئنا من أجل المنشفة.
أسند يده اليمنى إلى الطاولة.
- أي منشفة؟
- المنشفة التي تعرفها. نسيتها امرأة حلت ضيفة على السيد. كانت هنا قبل أسبوعين.
- امرأة؟ أي امرأة؟
- امرأة جميلة. ليلة وصولها أقامت هنا.
- صحيح. كان ذلك ليلة الخميس. هل هي في القرية الآن؟
- لا. لقد ذهبت. رافقناها صباح الجمعة إلى رحلة القطار.
- ما صلة القرابة بينها وبين السيد؟
ابتسم الفتى: "هل سمعت؟ يسألني عن صلة القرابة بينها وبين السيد".
"سمعتُ"، قال الآخر.
- بصرف النظر عن صلة القرابة، أعطنا المنشفة.
لقد فقدت المنشفة أهميتها الآن، لكن كيف له أن يعطيها لهما مع كل البقع المتيبسة عليها؟
- لم أرَ منشفة أو أي شيء آخر.
- إنها بألوان صفراء وحمراء وسوداء، كما وصفتها للسيد.
- قلت لك إنني لم أرها.
تنمر الفتى: "اسمع! السيد لا يكذب".
- عاملة الفندق هي التي ترتب الغرف. لنلقِ نظرة على غرفتها إن شئتم.
أخذ مفتاح الغرفة رقم 2 من الدرج، واتجهوا إلى الدرج. قال الفتى: "إياك أن تتلاعب بنا!"

مع معرفته بلا جدوى البحث، أدخل المفتاح في قفل الباب وفتحه. اتسعت عيناه لما رأى، فقد كانت المنشفة معلقة على حاجز السرير المعدني! تلقى دفعة من الخلف وشتيمة. أمسك المنشفة؛ إنها نسخة طبق الأصل عن تلك التي تحت، بخطوط سوداء رفيعة، وخطوط صفراء وحمراء عريضة، لكنها نظيفة، وليست عليها بقع. سحبها الفتى من يده. ساقاه ترتعشان. جلس على حافة السرير. ثمة صحف متراكمة فوق الكرسي. إذن، نسي الضابط المتقاعد منشفته أيضاً حين غادر.

- ماذا عن هذا الكاذب؟

- هل نضربه؟

- لا، لم يبقَ فيه إلا رمق. لن يتحمّل.

- فلنربطه إلى السرير.

- لو عندنا حبل...

كانا بجانب النافذة.

- انظر! هناك حبل غسيل في الباحة.

- أسرع وأحضره إلى هنا.

ركض الفتى الأسمر ذو القامة القصيرة. كان الآخر أشقرَ بوجه وسيم. تتضح ريفيّته من يديه الكبيرتين ذاتَي العظام الناتئة. كانت المنشفة في يده مطوية. سيظن ذلك السيد البيطار أنها منشفة المرأة. لقد بقيت في القرية أسبوعين، وصباح الجمعة...

- هل رافقها السيد البيطار لوداعها؟

- كيف يرافقها؟ لقد وقع عن ظهر الحصان قبل شهر، وانكسرت ساقه في موضعين. ما زالت في الجبصين.

- هل اسم السيد هو عمر؟

- عمر؟ من هو عمر؟

- ابن قره مصطفى.

- آه، ذاك؟ لقد قتلوه في الصيف. قيل أن أخاه هو الذي كلف أحداً قتله مقابل نقود.

تمدد على السرير. كان الفتى ينظر إلى الباحة من خلال النافذة. لوح بذراعه. "أسرع يا هذا"، قال بصوت مكتوم. أدار رأسه نحو زبرجد: "لماذا اضطجعت؟"

- شعرت بدوار في رأسي.

- بسبب الخوف... لأننا سنربطك.

- ليس بسبب الخوف. لن تتمكنوا من تقييدي على أي حال. سيأتي أحد ما بعد انصرافكم ويفك الحبل. وطبعاً سوف يسأل من فعل هذا؟ فيأتي اثنان من عناصر الدرك إلى القرية في المساء...

- لن تخبرهم. أنت أخفيت المنشفة.

- لم أعرف أنها في الغرفة.

- ومن سيعرف غيرك؟ أنت مدير الفندق.

أراد الفتى أن يقول: أنت المسؤول الوحيد عن كل شيء هنا، عن كل ما يحدث هنا.

- صحيح، لكن يتوجب عليّ أن أخبر من سيفكني عمن قيدني.

- لكنك لا تعرفنا.

- سأقول إن السيد البيطار قد أرسلهما. سيتكفل الدرك الوصول إليكما.

غام وجه الفتى وصار جامداً. بيده اليسرى، حك ردفه، ومشى نحو الباب. سمع وقع أقدام على الدرج.

- أهذا أنت؟

- نعم، إنه أنا.

حين دخل الآخر عبر الباب أخذ الحبل من يده وألقى به إلى السرير. كانت المنشفة في يده اليسرى.

- هيا بنا نذهب. وإلا ابتلينا بمشكلات مع هذا المتحاذق.

ضحك زبرجد ضحكة قصيرة: "لم تستطع أن تقيدني كما قلت لك".

- أنت مربوط سلفاً.

شتم الفتى ومشى، وأمسكه رفيقه من ذراعه: "لنذهب!"

خرجا من الغرفة، وصاح من ورائهم: "لأنك جبان. أهل القرى جبناء".

أطلقا الشتائم، لكنهما لم يعودا. أَغلق باب الفندق بصخب. لملم الحبل المشتت من فوق السرير ووضعه فوق المنضدة بجانب السرير. لم ينهض. شابك أصابع يديه تحت رأسه، وراح ينظر إلى انعكاس النافذة على مظلة المصباح البيضاء المعلقة بالسقف. كانت النافذة تطل على جهة الجبل. هرب الرفاق الثلاثة من المدرسة، بعد الظهر من أحد الأيام في أيار، وذهبوا مع محيي الدين الكردي ليأكلوا الحمّيض ويسرقوا الكرز. فجأةً انهمر مطر جبلي غزير. ركض نحو الصخور للاحتماء بها وقد أحس أنه سيختنق بماء المطر. تبللوا تماماً. لا شيء يُرى وراء ماء المطر. بكى. "أمه وِلدت صبي..."، جففوا أنفسهم وهم يرتجفون حول النار التي أشعلها الراعي في حظيرة كسيك درا تحت. قالوا إن أخاه هو الذي خطط لقتله مقابل نقود. ركض عمر في الممر الجبلي، وقد شمر سرواله الأبيض حتى ركبتيه قافزاً فوق الجواميس. فكر أيضاً أن المرأة ذهبت إليه. المنشفة التي أخذها الفتيان... ترى، هل من صلة قرابة بين المرأة والضابط المتقاعد؟ حين غادرت في ذلك الصباح، التقته على الباب. "الغرفة التي نزلت فيها تلك المرأة..."، "هي لم تسلِّم غرفتها..."، لا يحتمل وجود قرابة بينهما. لعلهما اشتريا المنشفتين من المتجر نفسه في أنقرة. استقام، هبط من السرير، شد كنزته وسترته، رتب ما تغضن من اللحاف. عليه أن يرتب السرير فوق أيضاً. صعد إلى الغرفة 6. وجد السرير مرتباً. رفع اللحاف ونظر: هناك بقعة صغيرة رطبة وسط الشرشف بدأت تجف. بقعتان بلون أحمر باهت على غلاف المخدة. سمع طرقاً على طاولة المكتب تحت.

- ألا يوجد أحد هنا؟

ترك اللحاف ومشى.

- أنا قادم.

أقفل الباب. أقفل أيضاً باب الغرفة 2 في الطابق الثاني، ولما انعطف مع الدرج، وفي يده المفاتيح، رأى شرطياً واقفاً أمام طاولة المكتب، فتثاقلت خطواته.

"هل تبحثون عني؟" قال بلا مبالاة.

- هل أنت مدير الفندق؟

- أجل.

على الدرجة الأخيرة، أمام باب الغرفة 1، تعثرت قدمه. "مهلك"، قال الشرطي.

- ما الذي كنت تفعله فوق؟

- أنا؟ أرتّب الغرف.

وضع المفاتيح فوق الطاولة.

- أليست هناك عاملة فندق؟

- صحيح، لكنها في إجازة منذ خمسة أيام.

- على أي حال، جئت لأسأل عن شخص.

- تفضلوا!

- وصلنا تعميم هذا الصباح من أنقرة. إنهم يبحثون عن شخص في نحو الخمسين، متوسط الطول، مكتنز الجسم بعض الشيء، له حاجبان سميكان وعينان خضراوان. هل أقام رجل بهذه المواصفات في الفندق في هذه المدة؟

مد صورةً في يده. نظر إليها زبرجد. إنه الضابط المتقاعد. لكن التغضنات على جبينه لا تظهر في الصورة.

- كانت لديه كنزة خضراء فاتحة. مضى أسبوعان. لقد جاء صباح الجمعة، وأقام هنا أسبوعاً كاملاً.

- أسبوعاً؟

- أجل. نقلت بياناته الشخصية من بطاقة هويته.

فتح دفتر السجل، وعثر على صفحة الجمعة. انحنى الشرطي على الصفحة.

- محمود غورغون. ليس هذا اسمه. يبدو أنه أعطاك هوية غير هويته. الجمعة 18 أكتوبر. حسناً، ماذا كان يفعل هنا؟

- كان يمضي كثيراً من وقته جالساً على ذلك المقعد، يقرأ الصحف، كومة من الصحف كل يوم. حوالى الظهر ينزل من غرفته ويخرج لتناول الطعام. كذلك طعام العشاء.

كان الشرطي ينقل البيانات من الدفتر إلى ورقة منفصلة.

- سبق وسجلت الفيش اليومي.

- أي فيش؟
- فيش الشرطة، كنت أرسلها إلى القسم.
- هه! تلك الأشياء. إنهم يلقون بها في مكان ما هناك. لا أحد يقرأ ما فيها.
يا للعجب! منذ سنوات وهو، وقبله أبوه، يرسلان بيانات النزلاء كل أسبوع بانتظام إلى الشرطة، وهناك يُلقى بها في مكان ما! كان يظن أن إرسال تلك الفيش نوع من العلاقة مع الفوق.
- إذن، لماذا يطلبون منا تسجيلها وإرسالها؟
- لا بد أن للأمر نفعاً ما. دعك من ذلك الآن.
أراه الشرطي الصورة مرة أخرى.
- إنه هذا، أليس كذلك؟
- نعم، هذا هو الضابط المتقاعد.
- ابن الحمير! إذن، قال لك إنه ضابط متقاعد.
- أليس كذلك؟
ضحك الشرطي: "متى غادر؟"
- قبل عشرة أيام، صباح الجمعة.
- كيف بدا أثناء المغادرة؟
- منظره الخارجي لم يختلف. في يده حقيبة سفر جلدية صغيرة. لم يحلق في ذلك الصباح. بدا كأنه مريض.
كتب الشرطي شيئاً في ورقته ثم طواها ودسها في جيبه.
- حسناً! أستودعك الله.
- طاب يومك، يا سيدي.
ابتعد باتجاه الباب. سأله: "ما جرمه؟"
التفت الشرطي وابتسم.
"يقال أنه يهرّب فتيات إلى أفريقيا"، قالها بنبرة ساخرة.
فتح الباب، والتفت مرةً أخرى، وقال بوجه صلب الملامح: "لقد خنق ابنته التي من صلبه".
- أتقول خرب ابنته؟

- قلتُ خنقها. قبل ثلاثة أيام ملأت الرائحة البناء، فأبلغنا البواب.

حين خرج الشرطي، جلس على مقعده. راح ينظر إلى المجلس المعتاد للضابط المتقاعد. قال إنه خنق ابنته... كل شيء طبيعي على كوكب الأرض. كلاهما خنق شخصاً قريباً. في الأيام الأربعة الأولى، ظن أنه ينتظر تلك المرأة. ألم يكن بانتظارها؟ لعله رآها في مكان ما وكان برفقة ابنته، أو لعله شبهها بامرأة أخرى. "لقد هرب. وهل يمكن مواصلة الهرب بصورة دائمة؟" ربما كان يهرب من شعور التوتر الدائم الناجم عن انتظار مداهمة من الشرطة في أي لحظة، جالساً في غرفته، يخاف كلما سمع باب الفندق يفتح، أو وقع أقدام على الدرج، أو أصواتاً لا يعرف ماذا تكون، متسائلاً بهلع: "هل جاؤوا؟" فيمضي أكثر أوقاته هنا متظاهراً بقراءة الصحف أو الكتب. صحيح أنه أقرب إلى الخطر لكنه يرتاح قليلاً حين لا يفتح الباب فلا يكابد القلق من المجهول. فُتِحَ الباب. دخل رجل طويل القامة نحيلها. إنه البقّال القريب.

- مرحباً! جئت أسأل عن العاملة عندكم، هل هي مريضة؟

- العاملة؟ لماذا؟

- لها بضعة أيام لا تأتي للتسوق.

- آه، نعم! سافرت إلى قريتها، فقد مات خالها.

- آه!

- ستبقى هناك شهراً. إذا احتجت شيئاً، سأمر عليك.

- حسناً! بالتوفيق.

- لكم أيضاً.

انصرف البقّال. ثم، وهو يتمشى في القاعة، جاء الشرطي نفسه برفقة آخر يخاطبه بـ"سيدي المفتش". طُرحت الأسئلة نفسها مرة أخرى بالتفصيل. رغم قوله إن زبائن آخرين أقاموا في الغرفة نفسها بعد مغادرة الضابط المتقاعد، طلب المفتش رؤية الغرفة. صعدوا الدرج، وسأله المفتش عن الحبل، فقال إنه حبل الغسيل، وإنه تركه هناك حين جاء ليرتب السرير، ثم نسيه حين نادوا عليه من تحت. كانت أدراج الخزانة الصغيرة قرب السرير فارغة. تفحّصوا الصحف جميعاً. حين نزلوا إلى الطابق الأرضي نظم الشرطيان ضبطاً، وسأله

المفتش عن اسمه، وحين أخبره ضحك. أخذا توقيعه على الضبط وانصرفا. شعر بالتعب، فجلس على مقعد الزاوية. لقد ضحك الرجل. هل الآخرون ضروريون؟ في الغرفة فوق حين كانا يشاهدان الصحف، أحس بإنهاك في ركبتيه، ووصل الكلام إلى رأس لسانه وقلبه يخفق بشدة... لقد صرخ الرجل فجأةً: "هل أخذت من هذه؟" بلع ريقه قبل أن يقول: "لا، يا سيدي". ربما يتكفل الزمن إيجادَ نهاية للإمكانات والاحتمالات. حين دوّى مدفع الظهر نهض واقفاً. الساعة ذات المنبه التي جاء بها صباحاً حين خرج من الغرفة، ووضعها فوق الخزنة، كانت متقدمة دقيقتين. صحّحها. دخل غرفة المؤونة التي بجانب الباب، وأخرج من الخزانة أحد المعلبات: محشي الملفوف بزيت الزيتون. وضع العلبة فوق طاولة الكي. تلفت حوله وأمسك سكيناً ومدق الهاون وفتح العلبة بصعوبة بضرب مدق الهاون فوق مقبض السكين.

بعد الظهر علق لوحة "مغلق" على باب الفندق وخرج. كان الجو أكثر دفئاً بعد مما كان عليه في الصباح. عند ناصية شارع المحطة استند رجل شاب إلى الجدار وفي يده سيجارة. على الرصيف المقابل، مر شاويش بلدية وفي يده حقيبة جلدية ("لا بد أنه ينتظر شخصاً، فتاة"). أقفل الباب ومشى. قبل خمس سنوات (أم ست؟) تسلط على الفندق واحدٌ من هؤلاء. شخص ضخم الجثة ذو خدين ورديين، ويرى أن الشراشف المبدّلة ومشمع الأرضية المفروك بعناية وسخة. يهز حقيبته الجلدية مهدداً بكتابة مخالفة. لم تنقطع زيارات هذا الشاويش إلى الفندق إلا بعد أن شكا أمره لطبيب الأسنان. تباطأ أمام مخبز الفطائر، ونظر إلى المفتاح في يده اليسرى، وعاد أدراجه. لم يجد شاب الناصية في مكانه. صعد الدرجات الثلاث، دوّر مقبض الباب، دفعه، هزه. إنه مقفول. سمع صوتاً نسائياً من خلفه: "مكتوب إنه مغلق. ألا ترى؟" إنها امرأة طويلة القامة ومسنة بعض الشيء. ابتسمت ومضت في طريقها مسرعة. وضع المفتاح في جيبه. تجاوز المخبز والمكتبة ومعزل الأمراض الصدرية. رأى ثلاث نساء قرويات جالسات على الدرج الحجري لقصر العدل بعيداً من الباب الزجاجي. وقف عند زاوية الشارع المؤدي إلى السجن الجديد الواقع خلف هذا البناء الطويل ذي الطابقين. كان السجن القديم...

- دعني أطلي حذاءك، يا أخي!

إنه صبي أسمر ذو شعر مشعث قذر. وضع قدمه اليمنى على صندوق الطلاء، وقال للصبي: "لا أريد تلميعاً".

... قريباً من الجبل، في ساحة الثكنة. يقال أنه كان جزءاً من الثكنة القديمة. لم يحترق حين اندلع الحريق الكبير. بنوا مدرسةً مكانه. في طفولته، ذهب مرةً إلى كُتّاب المُلّا لطفية، وكانت امرأة ثرثارة، كثيرة التجاعيد، بجسد غير متسق، ويخلو فمها من الأسنان. يقال أنها الأخت غير الشقيقة لجده المزعوم الذي زوجوه الخادمة اليتيمة (جدته) التي حبّلها هاشم بيه. كانت في ظهيرة كل يوم تأخذ الطعام إلى حفيدها في السجن، وتنتظر تحت البوابة. "من هذا الولد، يا جدتي؟" "إنه ابن سعيدة ابنتي".

ضرب ماسح الأحذية بفرشاته على الصندوق. مد قدمه اليسرى وكرر: "لا أريد تلميعاً".

كان بيتهم في الجبل، تحت الجامع الكبير. يقصدانه، هو وأمه، في بعض الأعياد. ويُحكى، في تلك المناسبات، عن مناقب الأقرباء المتوفين. ربما كان ذلك اليوم عيداً أيضاً. شاب بشاربين رفيعين ووجه شاحب، ويداه على القضبان الحديدية بارزتا العظام قصيرتا الأظفار... لقد أطلق النار على ابن الساعاتي حسن أفندي أثناء حفلة سُكر ومجون في أحد الكروم، وكان ثملاً يتبادل المزاح مع رفاقه. وقد أكد الولد، حتى لحظة وفاته، أنه لم يتعمد قتله بل كان حادثاً. لكن حسن أفندي لم يلِن، وحُكِم على الشاب بالحبس خمسة عشر عاماً.

- انتهى، يا أخي.

سحب قدمه، ووضع نقوداً في اليد السمراء القذرة التي مدها الولد. لو أنه دعا، تلك الليلة، الصبي الذي يعمل أجيراً عند الحداد، واصطحبه معه، ربما... استدار وصعد الدرجات الحجرية ودخل عبر الباب الزجاجي الكبير. لقد جاء إلى هنا، ذات يوم، حين كان أبوه على قيد الحياة، ومرة أخرى حين استدعوه شاهداً في محاكمة ذلك اللص، لكنها لم تكن في محكمة الجنايات. كُتب فوق

الباب المفتوح بدرفتيه: "محكمة الجنايات". دخل بهدوء وجلس على مقعد خلفي على اليسار. التفت عدد من الحاضرين ونظروا إليه.

"أيّهم هو؟" صرخ الرئيس ذو الشعر الشائب والحاجبين السميكين والجبين المتغضن والشفتين الرقيقتين الذي توسط القضاة الثلاثة الجالسين وراء المنبر بياقاتهم الحمراء وعباءاتهم السوداء.

"الجالس على اليمين يا سيدي، نائل بيه"، قال الرجل ذو الشاربين الأسودين الجالس في كرسي الشهود، وأشار بيده إلى واحد من ثلاثة رجال في قفص المتهمين ذي القضبان الخشبية. كان يقف وراءهم ثلاثة من عناصر الدرك مسلحين بالحراب.

- ماذا قال؟ احكِ لنا!

- طلب مني نقل شاحنتين من الرمل. جرت بيننا مساومة، واتفقنا. نقلت الرمل المطلوب، وأفرغناه بجانب الباب الخلفي للمستودع.

- أي مستودع؟

- مستودع بيع المنتجات الزراعية.

- من أين حصلت على الرمل؟

- من وادي الخنازير. غالباً ما نأخذ الرمل من هناك.

استقام النائب العام في مجلسه.

- ليُسأل الشاهد هل هو على علم بأنهم كانوا يخلطون الرمل ببذار القطن المخصصة للزرع؟

- هل سمعت السؤال؟

- نعم، سمعته يا سيدي. لا أعرف. لقد قال لي إنه يريد أن يطلي الجدران بالجص.

- صحيح. لقد جصصوا جيداً.

ضحك بعض الحضور. ضرب الرئيس بمطرقته على المنبر.

- وأنتم، هل لديكم أسئلة؟

نهض واحد من المحامين الجالسين بجانب القفص بعباءتيهما السوداوين: "ليُسأل الشاهد: هل سبق له رؤية هذا الرجل؟" قال وهو يشير إلى الرجل

الذي توسط المتهمين الثلاثة.

- لم أره.

أملى الرئيس كلاماً على كاتب المحضر. ثم استُدعي شاهد آخر. تحدث الرئيس باختصار مع القاضيين الجالسين على يمينه ويساره.

- اكتب! – قاموا واقفين – ... بسبب غياب... تقرر أن يُكتب... إلى الخميس. خذوا هؤلاء!

ارتجف زبرجد. كان عناصر الدرك يقيدون معاصم المتهمين حين خرج اثنان من جمهور الحضور. هو أيضاً خرج في أعقابهما. جلس على أحد المقاعد الملاصقة للحائط وأشعل سيجارة. من الممر الطويل على يساره، يُسمع من حين إلى آخر نداءٌ يتكرر مرتين، بصوت صارخ، على اسم مدّعى عليه، أو مدّعٍ، أو شاهد، أو محامٍ... يخترق الهدير المضغوط الصادر عن جموع الجالسين على المقاعد والمحتشدين أمام الأبواب والمارين في طريقهم إلى مختلف الاتجاهات. هناك من يدخلون من الباب الكبير أو يخرجون منه. فهم من الأصوات القادمة من قاعة المحكمة أن جلسة جديدة قد بدأت. يبدو أنهم لا يقتادون المتهمين من هذا الطريق لا في الذهاب ولا الإياب. لا بد أن ثمة باباً في الجهة الخلفية من جهة السجن. كانت سيجارته في منتصفها، فلم ينهض. حين ارتفعت حرارة إصبعيه المصفرّين أخذ نفساً أخيراً منها وتركها تسقط بين قدميه. نهض واقفاً فسحقها ودخل قاعة المحكمة. جلس في مكانه السابق نفسه. كان كاتب المحكمة يقرأ بسرعة ورتابة: "في الصباح، جاء أصدقاء العريس المقربين ليوقظوه. رددناهم على أعقابهم بدعوى أنهما لم يستيقظا بعد. بعد ساعة جاؤوا مرة أخرى وقالوا هل ألقوا تراب الموتى عليهما يا فاطمة هانم سئلت عمن تكون فاطمة هانم فقالت إنها فاطمة كوروجا والدة المتهم بعد قليل على صعود فاطمة كوروجا إلى الطابق العلوي صرخت بألم فركضتُ بسرعة كان باب الغرفة مفتوحاً وكانت فاطمة كوروجا منهارة أمام الباب تصرخ داخل الغرفة على سرير الزفاف كانت العروس متمددة عارية وجهها مسحوق يغطيه الدم وشعرها تبعثر على المخدة وصدرها مضرج بالدم أيضاً سئلت فأفادت بأنه لم يكن هناك أي شيء في يدي القتيلة سئلت فقالت

إنها لم ترَ إبريق الماء سئلت فقالت إنها على معرفة بأهالي كلا العروسين لذلك نامت تلك الليلة في إحدى غرف الطابق الأرضي في بيت العريس كي تأخذ علامة عذرية العروس إلى بيت أهلها سئلت فقالت إنه قرابة منتصف الليل سمعتُ أصواتاً مكتومة من فوق لكنني لم أشتبه في شيء لأنها ليلتهما الأولى وقالت إنه ليست لديها أقوال أخرى طلب النائب العام أن يطرح عليها السؤال حول هل كانت تعرف المتهم وهل لديه تصرفات غير متوازنة فسئلت فقالت إنها تعرفه جيداً وإنه نشيط في العمل قليل الكلام وقالت إنه ذات مرة عاد من الحقل وصرخ على أمه موبخاً لأنها لم تعدّ له حساء العدس وذات مرة اقترب منها من الخلف وهي تصلي صلاة العصر وأطلق طلقة بمسدس مفرقعات بجانب أذنها وهو ما أفسد صلاتها قال محامي المتهم إنه ليست لديه أسئلة جاء دور الشاهد حسن بالجي ابن أحمد من أمينة تولّد ألف وثلاثمئة وستة وثلاثين قيل له يمكنك ألا تقسم إذا شئت لأنك خال المتهم أقسم سئل فأجاب قائلاً إنه في ليلة الأحد الثالث من آذار ألف وتسعمئة وثلاثة وستين قرع باب بيته قرابة الفجر وحين غادرتُ سريري وفتحت الباب وجدت أن الطارق هو ابن أختي أحمد كوروجا استغربت ذلك لأننا في الليلة نفسها تركناه بعد صلاة العشاء مع عروسه في ليلة الزفاف سألته ما الأمر قال إنه قتلها بدا عليه التعب فقد جاء سيراً على الأقدام لمسافة ثلاث ساعات ونصف سألتني زوجتي من الطارق فقلت لها لا ترفعي صوتك قال إن ما معه من نقود لن يكفيه لتأمين هربه وطلب مني بعض النقود قلت له لا تشغل بالك بالنقود فأمرها سهل اجلس واسترح قليلاً ورغم إلحاحي الشديد لم يفصح عن سبب قتله عروسه اكتفى بالقول إنه ضربها على رأسها بالإبريق النحاسي حاولت إقناعه بالاستسلام قلت له إلى أين ستهرب لن يمضي يومان حتى يكونوا قد ألقوا القبض عليك لكنه لم يوافق قلت له إذن انتظر الليل فاضطجع على فرشة رقيقة واستغرق في النوم فأرسلتُ ابني إلى قسم الشرطة فجاء الدرك وأخذوه سئل فقال إنه ابن أخته الكبيرة وإنه ترك المدرسة بعدما رسب في الصف الأول الإعدادي وإنه يساعد أباه في العمل الزراعي وحين يأتي في الشتاء إلى القرية يخرجان معاً إلى الصيد وهو يجيد التصويب على الطيور

والحيوانات البرية إلا البط الذي كان يمتنع عن الانشغال به وفي أحد الأيام جرح ابن آوى وانقض عليه فخنقه ثم قال ليست لديّ أقوال أخرى قال النائب العام والمحامون إنه ليست لديهم أسئلة طرح السؤال مجدداً على المتهم بخصوص سبب قتله لزوجته فلم يرد تم التباحث حول ما يقتضيه الوضع وتقرر إرسال المتهم أحمد كوروجا إلى الطب الشرعي لتحديد أهليته لتلقي العقاب بالنظر إلى سلوكه أثناء جلسات المحاكمة كما تقرر بإجماع الأصوات تأجيل الجلسة إلى الإثنين الواقع في الرابع من نوفمبر عام ألف وتسعمئة وثلاثة وستين الثانية بعد الظهر".

تململ زبرجد في مجلسه. سوّى وضع ياقة كنزته. طوال تلاوة محضر الجلسة المنتهية بهذه الطريقة الرتيبة كان ينظر بثبات، بين عنصري الدرك المزوّدين بحربتين، إلى المتهم الجالس في القفص، فكان يراه من الوراء من جهة اليسار، بشعره المقصوص وأنفه الكبير نوعاً ما وكتفيه العريضين وعنقه الغليظ ووجهه الشاحب، مطأطئ الرأس.

- قف!

كان متوسط الطول.

- متى غادرت المستشفى؟

- السبت.

- لم يأتِ التقرير بعد. هل لديك ما تريد قوله؟

- لا، يا سيدي.

- ألن تخبرنا عن سبب قتلك زوجتك؟

أطرق برأسه. يده اليسرى تمسك طرف سترته وتشد عليها.

"لقد حاصروك... الحق أنك غضبت من تلقاء نفسك ما الذي دفعك للذهاب إلى خالك لو أنك ذهبت باتجاه الجبل وأخذت معك حبلاً كنتُ أنا أيضاً على وشك..."

- قال الطبيب إنها عذراء وقال أبوها إنه لم يسمح لذبابة ذكر أن تحط على ابنته. فلماذا قتلتها؟

”أبوها؟ مات أبوها من زمان ثم زوجوها فأعادها زوجها قرابة الصباح بدعوى أنها فاقدة العذرية كانت عارية على السرير وعيناها مفتوحتان وفمها مفتوح فغطيتها باللحاف...“

- امتناعك عن الكلام ليس لمصلحتك. قل لماذا قتلتها؟

”من يدري؟ ربما يكون لمصلحته لكن يجب تقصير الأمر مع الشرطة وقضاة التحقيق والنيابة العامة والمحامين والقضاة والأطباء أما بشأن السبب فمنذ خمسة أيام...“

- هل أسمعَتْكَ كلاماً قاسياً؟ هل ضربَتْكَ؟

”لا أعرف ألا يمكن أن يكون الأمر بلا سبب التلفظ بكلام قاسٍ أو الضرب أو الامتناع عن الكلام أو تجنب الضرب يريدني أن أختلق رواية ما ليكيّف ما فعلتُه مع جانب ضيق من القانون كم يشبه الضابط المتقاعد غريب ماذا لو أنه خنق ابنته أو زوجته...“

- اكتب... (على وقع أصوات حركة المقاعد في القاعة، نهض بدوره. جاءه صوت مكبوت من يمينه قرب باب القاعة قال له: ”لا داعي أن تنهض“) بسبب تأخّر تقريره تقرر كتابة... وتأجيل الجلسة إلى الخميس 28 نوفمبر[8].

[8] في 28 نوفمبر/ تشرين الثاني 1922 تم تطهير بلدة إزنك (محافظة بورصة) من اليونانيين. يعتقد نقاد أتراك أن البلدة الموصوفة في هذه الرواية هي إزنك، مع أن ثمة تداخلاً في البلدة المتخيلة في الرواية بين صفات تخص إزنك وأخرى تخص إزمير.

وُضعت يدا المتهم في القيود، فاستدار زبرجد وخرج من القاعة. ”إذن، إلى الثامن والعشرين من نوفمبر“. كان الباب الزجاجي مفتوحاً. الشمس ساطعة خارج المبنى، والجو دافئ. هبط الدرجات. رأى أن بائع كعك قد انضم إلى ماسح الأحذية عند ناصية الشارع. مرّ أمام قسم الشرطة. تباطأ عند تقاطع الطرق الأربع. إلى الأمام على يمينه، ظهرت أشجار ”الحديقة الكبيرة“. في زمن قديم جداً، كان يرتاد تلك الحديقة من حين إلى آخر. يا ترى، كم الساعة؟ تباطأ شاب بقربه ونظر إلى الساعة في معصمه وقال له: ”الثالثة وعشر دقائق“. أسرع السير. أتراه فكر في صوت مسموع؟ بما أنه لن يوكّل أحداً آخر بقضيته، عليه أن يكون متنبهاً. لم يكن الشارع مزدحماً. إذا لبس ملابسه

القديمة وسترته، سيكون بإمكانه أن يحمل ساعة جيبه. أو يمكنه، في طريق العودة، أن يمر بالسوق ويشتري ساعة يد. تفقد جيبه الخلفي.

دخل الحديقة من بابها الشمالي. تراجعت كثافة الحصى الأبيض على الممرات المحاطة بالأشجار العالية والنباتات المتنوعة والأزهار، واختلطت بالتراب الأحمر. فوق مقعد خشبي ذي مسند تقشر طلاؤه الأخضر الغامق، تبرع به أحد البنوك قبل سنوات، جلس شابان أمام شجيرات الآس المقلمة. توقفا عن الكلام حين مرّ زبرجد من أمامهما. مرّ أمام رجل يقرأ صحيفة، وجلس على مقعد على اليسار قبل أن يصل إلى نصب الاستقلال المنحوت من الحجر، المنتصب عند أحد جوانب الساحة الصغيرة وسط الحديقة. أرخى جسده. فك زر سترته، سوّى كنزته، استند إلى مسند الظهر... في هذا التراب الذي يحتضن جذور أشجار الصنوبر التي لا تتحرك أوراقها في هذا اليوم الخريفي الدافئ الرائق بصورة استثنائية، لكنها مشدودة وحية، وجذور شجيرات الغار وأزهار الأقحوان والورد والزنبق ونباتات لا يعرف أسماءها لها أوراق كثيفة وأزهار حمراء، عظام ولحم وشعر وأظفار تفسخت لموتى دفنوا هنا طوال قرون وصولاً إلى الحريق الكبير. كان هذا المكان في السابق مقبرة. أمه وأبوه هما في المقبرة الجديدة شرقي البلدة. هنا دفن أجداده وجداته: الحاج زينل آغا، فرهوندا هانم، مالك آغا، هاشم بيه. كان طفلاً (في الرابعة أو الخامسة) حين اصطحبته أمه عشية عيد أضحى. قالت له: "لقد بكيتَ العام الماضي". هذا يعني أنها المرة الثانية التي يأتي فيها. لم يُدفن موتى جدد في هذا المكان بعد الحريق، وتم إغلاق المقبرة. فارتفعت الأشجار وتشابكت أغصانها على مدى السنوات، وازدادت كثافة الأعشاب البرية والأجمات والشوك تحتها، فلم يدخلا المقبرة المملوءة بأحجار كبيرة مزودة بعمائم يسند بعضها بعضاً وتغطيها الطحالب، بل وقفا خارجها، أمام الجدار المنخفض المحيط بها الذي تقوّض في بعض أجزائه وتشقق، في مكان قريب من قبور موتاهما. بين نساء بعيون مبللة، رفعت أمه رأسها تنظر إلى الأعلى وفتحت راحتي يديها، وأغمضت عينيها وتحركت شفتاها بصمت... اهتز المقعد اهتزازاً طفيفاً. التفت ونظر، فرأى رجلاً مسناً يعتمر قبعة ويلف عنقه بلفاع. وجهه

مجعد، وقد جلس على طرف المقعد وأخذ يغمغم شيئاً ما: "آه... لا... من الطيور..". إحدى يديه تمسك بعكاز بين ساقيه. ما الذي جعله يأتي وهناك مقاعد شاغرة؟

- اعذرني، يا بني، هل لديكم سيجارة؟ لقد نسيت علبتي في البيت.

أخرج علبته وقدمها إليه، أخذ سيجارة لنفسه أيضاً، ثم أشعل السيجارتين بعود ثقاب واحد.

- تسلم. هل أنت غريب؟

- نعم؟

- هل أنت غريب؟ سبب سؤالي أن اليوم يوم عمل.

- لا، أنا في إجازة تنتهي الأحد.

- أين تعمل؟

- في دائرة النفوس.

- جيد جداً. أولادي لم يدرسوا. الكبير نحن الذين لم ندفعه إلى الدراسة كي يرث مهنة أبيه، وبذلت كثيراً من الجهد من أجل الصغير لكنه امتنع عن الدراسة. الآن كلاهما يبيع الحمّص المملح. حين أشعلتم سيجارتي وقع نظري على ثؤلول على إصبعكم. اذهبوا إلى حكمت أسطة الإسكافي، فيقرأ عليه وتتخلصون منه فوراً. وخذوا معكم عوداً من نبات كف مريم. دكانه في سوق الإسكافيين. اسألوا هناك أي شخص فهو معروف. أبوه رمضان كان يقرأ على الثآليل أيضاً. كان صديقي. أنتم من أي عائلة؟

كان في وسعه أن يخترع شيئاً يجيب به. يمكنه أن يقول إن أهله جاؤوا من أضنة. من أين له أن يعرفه؟ قال: "من آل كججي".

- حقاً؟ قيل أنهم انتقلوا بعد الحريق إلى إزمير، وأن البناء قد تحول إلى فندق. إذن، أنتم... أنتم... فاروق... فاروق بيه... العفو... قيل أنه شنق نفسه وقد استغربت ذلك. كنا، في سنوات الطفولة، معاً في كُتّاب فوزية. كان يجلس قريباً مني في الصف لكنه قليل الكلام. ولم تكن علاقته جيدة بالتلاميذ الآخرين. كانوا يأتون به ويأخذونه بالعربة مثل جودت ابن كريم مسجي. كنا نجتمع في الباحة في الصباح لنشاهد العربة. لا أنساها أبداً: عربة مغلقة بحصان واحد، لها

نوافذ، وحوذي بطربوش ذي شرشوبة. بعدما تنصرف العربة كان يدخل الباحة متحرجاً مطأطئ الرأس. كان عدد من الصبية ممن هم أكبر منا يتصايحون معلقين على مظهره وثيابه وحركته. فيلوذ بزاوية نائية. بل يحدث، في الاستراحة بين الدروس، أن يدفعوه فيوقعوه أرضاً، أو يعرقلون خطوته بأقدامهم. ما كان يشكوهم إلى الأستاذ. ذات مرة دفعه من الخلف ولد ضخم، فالتفت فوراً وانقضّ على عنقه، بصعوبة فصلـ...

- انقض على عنقه؟ كيف؟ لم أفهم.

- التفت فوراً وانقض عليه. وقعا على الأرض. راح يخنقه بكلتا يديه. سحبوه من فوقه بصعوبة بالغة.

- هل كان سيخنقه لو أنهم تركوه؟

- من يدري؟ العفو... ما صلة القرابة بينكم وبين فاروق بيه؟

- إنه خالي. أنا ابن الابنة الوسطى لهاشم بيه.

- لم يكونوا يتركون شيئاً من الإرث للبنات قديماً. أنا لم أرَ هاشم بيه أبداً. لكنني أعرف رستم بيه. كان رجلاً وسيماً. هناك كلام حول علاقة ربطته بزوجة الحكيم ستافرو الشابة. كان يأتي أحياناً بنفسه إلى الدكان لشراء المكسرات والموالح. يرفض الحمّص المحمص مرتين (رمى بسيجارته على الأرض، وسحقها بقدمه. جلست على المقعد المقابل فتاة شابة ترتدي معطفاً بنياً وفتى نحيل البنية. وضعا حقيبتيهما بجانبهما. لف الفتى ذراعه حول عنق الفتاة) لا بد أنه مات، أليس كذلك؟

- نعم؟ من؟

- سألتك عن رستم بيه، هل مات؟

- نعم، لقد مات في إزمير. ابنه طبيب يقيم في إسطنبول.

- لقد تشتتوا بعد الحريق. بيتنا احترق أيضاً لكنني رفضت الرحيل. كان أهالي القرى يحضرون الخبز بالعربات. لاذ الناس بالخانات والحمامات والجوامع والمنازل غير المحترقة وبيوت اليونانيين من أهل البلد الذين فروا أو قتلوا، وبعرازيل كرومهم وخيامهم. كانت تبنى في الأماكن التي ضربها الحريق مساكن كيفما اتفق. لقد احترقنا لكننا كنا بخير، أحياء، ناجين (مرت من

أمامهما امرأة في حضنها طفل يبكي ويتشنج. مد الفتى في المقعد المقابل يده من فوق المقعد وقطف أقحوانة صفراء قدمها إلى الفتاة). كان البيت القديم بطابقين وباحة واسعة نسبياً. كان بيتنا مزدحماً بسكانه في طفولتي. أمي وأبي، جدي وجدتي، خالتي، أخوان أكبر مني وأختان. دخل أبي عريساً في بيت أهل العروس. يقال أنه كان الابن الأصغر لحافظ، بائع الحمص. كان أبو أمي قصاباً. وكان في شبابه غيوراً جداً. يكون منهمكاً في تقطيع اللحمة فتخطر زوجته في باله، فيقول لأجيره: "سأعود حالاً" ويخرج من الدكان بسرعة وفي يده الساطور وعلى خصره المريول. يدخل باحة بيته لاهثاً. في أحد الأيام، كانت جدتي خارجة من المطبخ تحمل قِدر الطعام حين اندفع جدي إلى الباحة، ولشدة مفاجأتها، دخلت إلى المرحاض ووضعت القدر فوق مقعد المرحاض. بكى جدي لكن ما في اليد حيلة. كانت جدتي تقول إنها ستموت يوماً بفعل ما يسببه جدي لها من هلع. انتهى بهما الأمر أنهما اتفقا على الطلاق وبقيا مقيمين في البيت نفسه مع ابنتيهما. كانت جدتي حريصة على النزول إلى مائدة الطعام ورأسها مغطى. وكانوا يقدمون الطعام على مائدة منفصلة (مرّ من أمامهما ثلاثة تلاميذ وهم يتدافعون ويركضون ويضحكون. صرخ حارس الحديقة عليهم من بعيد). كان أخي الأكبر مهتماً بالطعام. إذا كان هناك لون من الطعام أو الحلوى مما يحبه، يبصق في الصحن حين يبدأ الطعام فيه بالتناقص كي يستفرد بأكل ما تبقى. كنا نصرخ احتجاجاً وننسحب، ويواصل هو الأكل من غير أي اكتراث لتوبيخ الكبار له من المائدة الأخرى. حين عاد من الحرب كان أكثر مروياته يتعلق بالجوع الذي عانوه، وكيف سرقوا الدجاج أو الخراف أو الماعز، والطعام الذي أكلوه. لقد أرسلوه، في سفر برلك، إلى الحجاز، وحين عاد أطلقوا عليه لقب حاجي شريف. صحيح أنه حاجي لكنه أدمن الخمر والقمار ولم يهتم بالدكان. بعد مدة قصيرة على مجيء اليونانيين طعنه، ذات ليلة على طاولة القمار، ابرام ابن كراكز في ظهره بالسكين. أخي الكبير الآخر، حسن، شارك في حملة أنور باشا في ساري كامش ولم يعد. كنا، ثلاثتنا، متزوجين في زمن سفر برلك. وبين كل اثنين منا سنتان. أنا من مواليد ألف وثلاثمئة وثمانية [هجرية]. لكنهم أعفوني من التجنيد بعدما خرج عسكريان من بيتنا، فضلاً عن

أنني كنت نحيلاً نوعاً ما (الفتاة الجالسة على المقعد المقابل وضعت ساقاً فوق ساق. حذاؤها بلا كعب). كنت وحيداً في الدكان. عليك أن تحرك الحمّص، طوال النهار، في الوعاء النحاسي المائل فوق موقد الفحم الكبير، بقرمة خشب. العمل أصعب في أشهر الصيف. عليك أن تحتفظ بمنشفة في متناول يدك لتمسح العرق عن وجهك وعنقك. مع ذلك، تسقط من حين إلى آخر قطرة من طرف أنفك على الوعاء مصدرة صوت "جظظظ" – العفو منك – (جلست على المقعد المقابل القريب من نصب الاستقلال امرأةٌ شابة سمراء. شدت تنورتها إلى الأسفل. وضعت حقيبتها السوداء فوق ركبتيها. إنها تشبه واحدة يعرفها لكن شعر هذه أحمر قاتم أقرب إلى السواد). لا يمكن الوثوق بالأجير؛ من المحتمل أن يحرق الطبخة. كان أبي قد مات منذ وقت طويل. وماتت أمي أيضاً بعد مدة قصيرة على سَوق أخي الأكبر حسن (أشار بعكازه إلى يمين المكان الذي يجلس فيه). كلاهما مدفون ها هنا متجاوريْن. هل ترى الأزهار؟ إنها تحظى بعناية أفضل، أليس كذلك؟ أعتني بها بنفسي. الحارس من معارفي. آتي كل يوم، حتى لو كان الجو ماطراً. لعلك تتساءل لماذا المقعد الذي نجلس عليه لا يقابل بدقة المقعد الذي يجلس عليه هذان الشابان؟ انظر! جميع المقاعد الأخرى متقابلة تماماً. كان هذان المقعدان متقابلين أيضاً كالأخرى. بعدما حوّلوا المقبرة إلى حديقة، وصلت المقاعد، فوضعوا هذا المقعد هناك حيث يرقد أبي وأمي، وثبّتوه بأوتاد معدنية إلى الأرض. أسرعت إلى الحارس، فقال لي إن الأمر يتجاوز صلاحياته. وقال مدير البنك: "نحن أعطينا المقاعد للبلدية؛ الأمر يخصهم". أرسلوني إلى مديرية الحدائق التابعة للبلدية، فكان المدير غائباً. ذهبت إليه في اليوم التالي وشرحت له الوضع. قال لي إن المقاعد وُضعت بصورة متقابلة ولا يمكننا إفساد النسق". اقترحت عليه: "ليُسحب جانباً بمقدار خمس خطوات. العفو! هذا نسق أيضاً". تذللت إليه، وطالبت بإزاحة المقعد أربع خطوات. أصر على الرفض (عرف زبرجد المرأة الجالسة على المقعد المقابل إلى اليسار. إنها واحدة من النساء اللواتي يترددن على الفندق من حين إلى آخر برفقة رجل ما. الشاب والفتاة نهضا وحملا حقيبتيهما ومشيا بذراعين متشابكتين باتجاه المدخل الشرقي).

بعد يومين ذهب إلى رئيس البلدية صديقٌ لي له صلة قرابة به، وتحدث إليه في مشكلتي. قال له: "ليتقدم بمعروض". أعددت المعروض وأخذته إلى البلدية. في اليوم التالي، وأنا أنتظر أمام الباب، جاء البواب وأعطاني ورقة قائلاً: "قدّمها إلى الحارس". ذهبت إلى الحارس وكان مكتوباً في الورقة التي حملتها إليه أنه يجب إزاحة المقعد الرابع على اليسار، في الطريق الواصل بين باب الاستقلال والساحة، بمقدار ثلاثة أمتار إلى الأمام، أي باتجاه الساحة، على أن يتكفل مصاريف الإزاحة صاحب المعروض. فككنا، أنا والحارس، الأوتاد المعدنية، ونقلنا المقعد إلى هنا وثبتناه (وقع على ركبة زبرجد اليمنى براز طيور مائع، وانتشرت البقعة الناتجة عنه. رفع رأسه ونظر إلى الأعلى: كان الطير حمامةً. اضطرب الرجل المسن وراح يعتذر كأنه المسؤول عما حدث. لوّح بعكازه وطرد الحمامة، وأخرج منديله لكن زبرجد لم يسمح له بمسح الوسخ، بل سبقه ومسحه بمنديله. مرّ أمامهما رجل ضخم بشاربين وجلس على المقعد المقابل للمرأة ذات الشعر الأحمر الضارب للسواد) موتاكم أيضاً، فاروق بيه...

- هو مدفون هنا. هل شنق أحد من موتاك نفسه؟

- آه... لا... لم يحدث ذلك.

- أو من قتل أحداً؟

- لا!

- واحد من أقربائي خنق زوجته في ليلة الزفاف.

- في ليلة الزفاف؟ لماذا؟

- لم يخبر أحداً بالسبب. ضغطوا عليه كثيراً في المحكمة لكنه لم يتكلم. ربما لم يكن هناك سبب، أو هناك عدد كبير من الأسباب ولا يعرفها. انتهى به الأمر إلى الإعدام شنقاً.

عطس الرجل المسن، وأخرج منديله ومسح أنفه. سوّى لفاعه. سمع صوت الأذان يعلو في الجوامع القريبة من الحديقة. نهض متكئاً على عكازه.

- إنه أذان العصر. المعذرة! أوجعت رأسك. ربما نلتقي مرة أخرى. أمرّ على الدكان صباحاً لوقت قصير ثم أذهب إلى مقهى لاعبي الداما. لعلك تشرب

كأس شاي معي هناك. إنه في شارع مكتب البريد، بجوار المخبز الكبير حيث تقف عربات الكارو. على أي حال، أستودعك الله.

- مع السلامة، يا سيدي.

مشى الرجل ببطء نحو المدخل الشمالي. كان ظهره محنياً قليلاً. على يمينه تحت شجيرات الغار أزهار كعب الثلج والأقحوان والزنبق أكثر كثافة، وقد وقعت عليها أشعة الشمس المتسربة بين أوراق الصنوبر. حين التفت ونظر إلى المرأة تقاطعت نظراتهما. فجأة أدارت المرأة وجهها عنه. كانت شفتاها مصبوغتين وعيناها مكحلتين. تنظر باتجاه المدخل الشرقي. ربما تنتظر رجلاً أو أي رجل. أحس بارتخاء في ذراعيه وساقيه. ثمة، على فخذه اليمنى، قريباً من ركبته، بقعة بيضاء باهتة حيث وسّخت الحمامة. فركها، ومسحها مرة أخرى. مرت من أمامه تلميذتان بجوارب سوداء وياقات بيضاء وهما تتضاحكان. الرجل المشورب الجالس على المقعد الواقع على يساره يتابعهما بنظراته. حذاء المرأة خمري وبكعب عالٍ وفخذاها ممتلئتان. فتحت حقيبتها الموضوعة فوق ركبتيها. نظرت داخلها ودست يدها، ثم أغلقتها. يبدو أنها لم تجد فيها ما كانت تبحث عنه (منديل؟ علكة؟ مرآة؟ ساعة؟). كيف يمكن التقرب من هذه المرأة؟ ماذا يمكن أن يقال لها؟ "مرحباً، يا سيدتي... سيدتي؟ لا. مرحباً، لكم مدة ونحن لا نراكم؟ مرحباً، كيف الحال منذ آخر مرة التقينا فيها؟ مرحباً، يا سيدتي... سيدتي. مرحباً، إنه يوم جميل، أليس كذلك؟ مرحباً، آه حضرتك هنا إذن؟ مضى وقت طويل على غيابكم عن الأنظار. طاب يومك، أين أنت طوال هذه المدة؟ مرحباً، هل عرفتِني؟ طاب يومك، هل عرفتِني؟ آآآ... أهذه أنت؟ ما أجمل هذه المصادفة! مرحباً، أنت وحدك إذن؟ طاب يومك... هل لهذه الكلمات من نهاية؟ ستقال إحدى هذه العبارات. ربما تكون مجدية، أو عبارة غيرها...".

وقف وشدّ طرف كنزته، وزرّر سترته، ومشى. كانت المرأة تنظر إليه. وجهها شاحب. وقف بقربها.

- مرحباً، هل عرفتِني؟

- لا، وكيف يمكنني أن أعرفك؟

- أنا مدير الفندق القريب من المحطة. كنت تأتين من حين إلى آخر مع أحد ما...

- آه، نعم! وجهك تغير كثيراً.

- لقد قصصت شاربي...

- ماذا حدث للفندق؟ جئت ذات ليلة الأسبوع الماضي فكان مغلقاً.

- تجري صيانة السطح، وسيأتي عمال الطلاء أيضاً. (بلع ريقه). أتأتين معي؟

- لا أستطيع اليوم.

- أرجوك تعالي، أي شيء تطلبينه...

- قلت لك لا أستطيع اليوم.

- لماذا تزعج السيدة، يا هذا؟

توتر جسمه وخفق قلبه وهو يلتفت إلى مصدر الصوت. إنه الرجل المشورب الجالس على المقعد المقابل. وقف بجانبه ورمقه بنظرات عدائية. قالت المرأة بصوت حاد لكنه منخفض: "ما دخلك، يا هذا؟ اهتم بشؤونك".

ارتبك الرجل: "أ... أنا... ظننته...".

- منذ مدة وأنا حانقة عليك. أنت كالثور...

- لا تغضبي، يا روحي... أنا...

- ألا يحق لي تبادل الكلام مع أحد معارفي هنا؟ هيا انقلع! وإلا ناديت على الحارس.

استدار الرجل وابتعد.

"أف! يريد أن يعمل قبضاي"، قالت المرأة.

صوتها تحسّن. تململ زبرجد، فرد أصابعه وقبضها، سعل.

- لا تجلسي في هذا المكان. رافقيني إلى الفندق.

- لا يمكنني الآن. أنا بانتظار شخص. حان وقت وصوله. اذهب أنت وسألتحق بك بعد نصف ساعة.

- هل ستأتين؟ نصف ساعة؟

- نصف ساعة، أو في الحد الأقصى ثلاثة أرباع الساعة. هيا اذهب الآن! لا تبقَ واقفاً.

حين وصل إلى الفندق، أخرج مدفأة الكاز التي بلا مدخنة من تحت الدرج ونقلها إلى الغرفة. كان الجو داخل الغرفة فاتراً. لكن إذا طلبت المرأة إشعال المدفأة، سيشعلها. فتح الباب الصغير على يمين النافذة، إنه باب المرحاض الخاص الذي أنشؤوه قديماً لهذه الغرفة بصورة خاصة. عبس وجهه. بما أن أحداً لم يستخدم هذا المرحاض بعدما غادرت المرأة من أنقرة برحلة القطار المتأخرة، فهذه رائحتها. إذن، هي لم تسحب السيفون. "آه... إذن... وماذا عن الرائحة في ذلك الصباح؟" بال. شد السيفون. فتح نافذة الغرفة وتركها لبعض الوقت من أجل تغيير هواء الغرفة. وجه المرأة في الحديقة ("ربما أنفها أو شفتاها") ألا يذكّر بالأخرى؟ التقط المنشفة المرمية فوق حاجز السرير المعدني وطواها، ثم وضعها في درج الخزانة الصغيرة قرب السرير. لم يستخدمها منذ تلك الليلة. ليلة البارحة، حين أخذ يفكر ويتخيل بشأن الرجل والمرأة اللذين ناما تحت غرفة الميِّتة، مد يده نحو المنشفة، لكنه لم يأخذها، بل سحب اللحاف إلى فوق رأسه ونام. أغلق النافذة وأسدل الستارة. أشعل الوناسة الليلية. خرج إلى قاعة الاستقبال وجلس على المقعد في الزاوية. كان يشعل سيجارته حين ارتجت نوافذ الفندق بسبب سيارة مسرعة مرت في الشارع. كانت المنفضة مملوءة تقريباً. منذ خمسة أيام وهو يجلس هنا أكثر الوقت. هل سيبدأ من جديد؟ هز رأسه. مر بإصبعه على سطح الطاولة، فوجدها مغطاة بالغبار. نهض واقفاً وأفرغ المنفضة في سلة النفايات، ومسح الغبار عن الطاولة. أدار وجه الساعة ذات المنبه التي فوق الخزنة المعدنية نحوه. نسي أن يمر، في طريق عودته، على ساعاتيّ في السوق. ما زالت القاعة غارقة في ضوء النهار لكنه أشعل النور وعاد إلى مكانه. من حين إلى آخر يسمع وقع أقدام عابري السبيل على الرصيف في الخارج. فمه جاف ومرّ. تجشأ: "رائحة الملفوف المطهو هذه..." بلع ريقه، وأطفأ السيجارة في المنفضة. ترى، هل كانت المرأة تشرب أيضاً؟ صوته أجش قليلاً. نصف ساعة... أو... نظر إلى الساعة: إنها الخامسة والربع. طبعاً قد لا تأتي. إذا التقت من كانت تنتظره، إذا ذهبا إلى مكان ما، إذا لم يتركها الرجل تنصرف. ركبتاها مكورتان. كانت ستجلس على حافة السرير. صدر كنزتها السوداء ناهض.

”أتريدين الشاي؟ هل أعد لك شاياً؟ أنشرب الشاي؟ ... الشاي“. ابتعد ضجيج سيارة، واقترب صوت خطوات ثم توقف أمام الباب. تمسك بالمقعد ونهض. لم يدخل أحد. ركض إلى الباب ونظر خارجاً. رأى إلى الأمام من جهة اليمين امرأة برأس مغطى تبتعد. مرّ على الرصيف شاب بشعر مجعد، ومضى في طريقه من غير أن يلتفت. واضح أنها لن تأتي. ما الذي ينتظره من هذه المرأة أو من تلك؟ قال بصوت مسموع: ”إلى الجحيم“.

حين أطفأ الأنوار وخرج إلى الشارع كان الجو قد أعتم. مشى عبر الشارع المواجه لمخبز الفطائر المرصوف بحجارة مستطيلة تحيط به الأشجار من الجانبين، باتجاه السوق. إنه الطريق الذي اختاره للعودة إلى الفندق، ليلة الأربعاء، بعدما افترق عن صبي الحداد. دس يده في جيبه الأيمن، وشد بقبضته على ثمرتي الكستناء من بقايا تلك الليلة. كانتا باردتين وصلبتين. أخرجهما من جيبه ورماهما. عند تقاطع الطرق، على رصيف المبنى التجاري الكبير المضاء جيداً، حيث وقف الصبي وابتسم له، وربما انتظر دعوة منه، كان الباعة في مواقعهم المعتادة: باعة المكسرات، وبائع الحلوى، وبائع الكستناء. عبَر الشارع وتقدم نحو بائع الكستناء ذي الوجه المدور والخدين المترهلين ويعتمر قبعة، ثم توقف قبل أن يصل إليه. رفع بائع الكستناء رأسه ونظر إليه. كانت ثمار الكستناء المشوية بقشورها المتشققة مصفوفة على طرف المنقل المشتعل. قفزت شرارة. لم تكن لديه رغبة كبيرة، لكن ربما يشتري بعضاً مع طلب تقشيرها من البائع... صرخ بائع الكستناء: ”لم تنتصب واقفاً عندك، يا هذا، مثل شاهدة قبر يهودي وسط الطريق؟ هيا اغرب عن وجهي!“

ضحك أحدٌ ما. استدار زبرجد فجأةً ومشى على طول الرصيف. ”شاهدة قبر يهودي...“، نفض ذراعيه، وفرك خديه. ”هل ظهرتُ مثل حجر حقاً؟“ ليس المهم التشبيه الذي استخدمه الرجل، بل سلوكه المهين. ما الذي لن يفعله المرء رداً على تلك الفظاظة! أما هو، فهرب كما ترون؛ اختار الأسهل بين الاحتمالات. لو أن الأمر يتعلق بموقف آخر، ما احتاج إلى الهرب. أينما ذهب سيلاحقونه. حتى لو هرب إلى قرية العريف خليل. ماذا يمكنه أن يفعل هناك؟ ألم ينخفض عدد الاحتمالات منذ خمسة أيام، وبخاصة اليوم؟ لن يهرب. لن

يترك وضعه لمحاكمات الآخرين. ثمة احتمالات أخرى طبعاً. حتى مع بائع الكستناء. والآن، يمكنه الذهاب إلى بائع الكستناء ليقف أمامه و... "أنت شاهدة القبر يا هذا

أبوك شاهدة قبر

أمك شاهدة قبر

زوجتك شاهدة قبر

ليست زوجتي بل امرأة ما

فطيسة

أنت فطيسة

تينة ناضجة

يهودي بوجه محمرّ

سيقبرونك في مقبرة اليهود

بعدما تفطس سترقص زوجتك رقصة جفتة تلّي على قبرك

كان ثمة امرأة صموتة تنام كثيراً ربما انفجر موقد الكاز

يمكن رفس منقله فتتبعثر ثمار الكستناء وجمرات النار

سكب الكاز في العلية سكب الكاز في غرفتها وعود ثقاب

سيقفز وينقض عليَّ

يتدخل آخرون كالعادة والشرطة والنيابة تستجوب أين كنت أنت أثناء الحريق ألم تشم الرائحة كنتُ نائماً

سيقلبني على الأرض ويمسك بخناقي

سيرى أحد ما ألسنة النار إذا كان الوقت ليلاً والدخان إذا كان نهاراً ويصرخ حرييييق

سيقترب منه متظاهراً بأنه يريد شراء الكستناء فيصفعه على وجهه
سيقترب منه من جانبه وصفعة على وجهه
سيقترب منه من جانبه وصفعة على رقبته

حرييييييق ويملؤون الفندق ويعثرون على الجثة

استجواب أسئلة سجن.

واقفاً أمام السجن القديم وراء بابه الحديدي وراء القضبان الحديدية بيديه الشاحبتين كان اسمه لطفي نعم بعدما ولدت الملّا لطفية ابنتها ماتت جدتي في فراش النُفاس قبل أربعين الطفلة أرضعت أمي كانت أمها بالرضاعة تقف أمامه مع المجرمين الآخرين في مكان واحد يمكن شتمه وهم سيسألون طبعاً لماذا قتلتها...

في يدي قلّامة الأظافر بعيداً من عيون الفضوليين أحفر حفرة في الباحة أقترب منه من الخلف يمكن طعنه في نُقرته

ليس في الباحة بل في القبو وتجرّ الجثة على الدرج في الليل إذا أمسكتها من رأسها وجررتها ستضرب قدماها على الدرج وإذا أمسكتها من قدميها وشددتها ستطرق رأسها على الدرج حتى إذا لم يرني أحد قد يبحث عن المرأة أحد من أقربائها من القرية وقد يقصد الشرطة يمكن للبقال أن يشهد فيقول إنني أخبرته بأنها سافرت إلى القرية لأن خالها مات إذن سافرت إلى مكان آخر أليس كذلك دُسوا تحت إبطيه ثمار كستناء محرقة

... وأنت تقترب منه من الخلف لتطعنه في نقرته بقلامة الأظفار قد يلتفت فجأةً

تم إرجاء الاستجواب وجلسة المحاكمة إلى الثامن والعشرين من نوفمبر إذن الثامن والعشرين من نوفمبر يطيلون الأمور بطريقة غريبة هل لذلك معنى كأن القاضي يقول لي خذوهم من هنا

يمكن أن نرمي على ثمار الكستناء حفنة رمل

نحصل على الرمل من وادي الخنازير

أنت تشبه الخنزير
الحمار
الثور
البقرة
البغل
القرد
الدب
فرس النهر
الصرصور
الفأر
الكلب
ابن آوى

انقض على ابن آوى وخنقهُ خاله يحكي ذلك قال خالي لن أترك فرسي طعاماً لبنات آوى هل كان خنقه لو تركوه يفعل ومن يدري هل يحتمل أن يخاف من المضي إلى النهاية لم يخف لو أنه لم يشنق نفسه بعدما استنفد كل الاحتمالات لكان الآن بوجهه المغضن وظهره المقوس وعكازه مثل الرجل المسن الذي التقاه في الحديقة يقال أنه كان شديد الوسامة في التاسعة عشرة كان الخياطون يتنافسون على خدمته كان يلبس ملابس من الكتّان الأبيض في تجويف الدرج طارت بضع ذبابات سوداء من فوق حذائه لم يدع ذبابة ذكر تحط على ابنته ما أحسن هذا الهراء

حين رأى بائع الكستناء قلامة الأظفار

قص أظفارك مسامير قدم مشيت اليوم كثيراً اذهب غداً إلى الاسكافي الأسطة حكمت

يمكنني أن اقترب منه
من الأمام
من جانبه
من خلفه
فأصفعه صفعة واحدة وأجعل قبعته تقع داخل المنقل المشتعل

المفتاح في جيبي نعم الآخرون نسوا المبنى وحدي بقيتُ هنا مع الموتى
الرجل المسن في الحديقة كان رفراف قبعته مائلاً
يُمكن الاقتراب منه وتُلتقَط القبعة من فوق رأسه وترمى بعيداً

رميته من نافذة العلّيّة فسقط في الشارع يكون عامل التنظيفات قد أخذه صباح اليوم التالي ظناً منه أن سيارةً صدمته ما اسمه لا اسم له لنطلق عليه اسم كرامك أليس هذا القادم هو الشرطي الذي جاء صباح اليوم

(استدار فجأة إلى الوراء فاصطدم بذراع رجل، اعتذر منه)

العفو هل أنت غريب لا نعم أنا كالغريب أحد عابري السبيل من معارفي أحد أقربائي ممن يمكن تبادل الحديث معهم من حين إلى آخر يجب الذهاب إلى مقهى لاعبي الداما ذات صباح رأوه يركض في الشارع بمريول القصاب وفي يده الساطور هل ضحكوا أم هربوا حين دخل الباحة وضعت جدته قِدر الطعام في المرحاض عصيدة كجمك بدأت تفسد كم يوماً يمكنها الصمود ابنة الضابط المتقاعد فاحت رائحتها بعد أسبوعين كانت في بناء طابقي العلية باردة وأمامنا فصل الشتاء يمكنها الصمود ثلاثة أسابيع على الأقل تذكر زوجته وهو يفرم اللحمة بالساطور فوق الخشب يجب شراء منشار فالعظام صلبة يجب شراء منشار حديد يمكن الحصول عليه من محلات الحدادين احتفظتُ بثمار الكستناء لأكرم

الاقتراب منه من الخلف ورفسة على ظهره
لكمة على نقرته

هل يُقطَع الرأس بدءاً من النقرة

رفسة على قصبة الساق من الجانب

القدمين أولاً باطن القدمين أسود لماذا لا تغسلين قدميك قبل النوم وصولاً إلى الفخذين من يدري كم قطعة الذراعان قطعتين لا بل ثلاث لا بد أن دمها متخثر لحم جسدها يمكن تقشيطه بسكين حادة كل يوم يمكن تغليف قطعة بورق كل بضع ساعات وحرقها مع الحطب تحت قدر الغسيل في رواق الباحة حتى لو شم أحد الناس الرائحة فسيظن أنها رائحة طعام احترق أسفله

هز رأسه. كان قد اقترب من المبنى التجاري. "يمكن دخول أحد الأزقة الجانبية يمكن الذهاب إليه والاعتذار منه على الوقوف أمامه بلا سبب ويمكن التصرف كأن شيئاً لم يحدث والمضي في الطريق من غير التفات إليه". مر من أمام بائع الحلوى وباعة المكسرات وبائع الكستناء من غير أن يلتفت ناحيتهم. هتف بائع الكستناء: "يوه عليك!" استدار ونظر نحوه. فرأى أن بائع الكستناء لا ينظر إليه بل إلى بائعيْ مكسرات يتمازحان بفظاظة، ينظر إليهما ويضحك. تجاوز البنوك وانعطف إلى اليمين قبل الوصول إلى الساحة. دخل المطعم الذي زاره الأسبوع الماضي ليلتين متتاليتين. كان أكثر الطاولات شاغراً. واحتل شابان قصيرا الشعر طاولة صغيرة على اليمين قرب الباب. أمام الثلاجة رأى الرجل ذا الأنف الكبير والخدين المتهدلين، يبدو أنه يجلس هنا كل ليلة. جلس إلى طاولة على يسار الباب، تلك التي كان الرجل بسترة ذات ستة أزرار جالساً إليها تلك الليلة. جلس متجهاً إلى الخارج. ثمة رجلان حول الطاولة التي خلفه، أحدهما يرتدي نظارات. وقف النادل بقربه: "مرني".
طلب عرقاً وشواءً وصينية باذنجان.
- ليس لدينا باذنجان الليلة، يا أخي. لدينا مسحوق الفول، هل تريد منه؟
- حسناً!

ثمة صوت يأتيه من الخلف يتحدث ممتدحاً كفتة البطاطا التي تقدمها إحدى خمارات إزمير التي يشرب فيها الزبائن واقفين. جاءه النادل بنصف زجاجة من العرق ومسحوق الفول الأخضر، فسأله زبرجد هل قُبض على الشاب الذي فر من بين يدي الشرطي والحارس ليلة الأربعاء.

- لا أعرف. لم أسمع شيئاً. هل تريدون جبناً وبطيخاً أصفر؟

- لا. أحضر برتقالاً، ليكن مقشراً.

صب العرق في الكأس الصغيرة الطويلة. شرب جرعتين محاولاً ألا يغضن وجهه. ترى، هل يمكن لهذا الشراب أن يخفف قليلاً من الثقل الذي يشعر به في رأسه وقلبه منذ أيام؟ كان يسمع الكلام الدائر بين الرجلين خلفه بشكل متقطع. "تبدو الأسابيع الثلاثة الأولى غير قابلة للتحمّل... الأيام... ثم يعتاد الأمر... لا يخرج المرء حتى في الأحلام". "... ألم تستفد من...؟" "لا... لم ينطبق على... سنتان باليوم والساعة...". "ألم؟..." صحيح لكن... "فقدان الثقة، شكوك، أكاذيب... لا يختلي المرء بنفسه أبداً... يطلب من حين إلى آخر... نوع من الدفء والحميمية". جاءه النادل بالبرتقال المقشر والمقطع واللحم المشوي. عيناه ملونتان، ويداه ليستا سمراوين. "يقول أحد أصدقائي إن أصحاب الأيدي السمراء يكونون طيبي القلب". الفتاة الطويلة التي جاءت إلى الفندق بصحبة أبيها لمشاهدة الآثار القديمة، قالت في الليلة الثانية وهي تشرب الشاي إنها مشتاقة لدراجتها الهوائية. سمتها دلدل. قال لها أبوها: "لم يبقَ إلا أن تعلفيها وتسقيها". يقال أن اسم الحمار الذي احترق لمسرَّتْ هانم، ابنة هاشم بيه الكبرى، كان دلدل أيضاً. ترى، هل كان اسم حصان محمد الفاتح الأبيض ذي العنق الطويل والكفل المنتفخ الظاهر في إحدى الصور المعلقة على الجدار، ماضياً بفارسه فوق سطح البحر، محني الرأس، دلدل أيضاً؟ (كان يطأطئ برأسه حين تلتقي عيناه بعيني فاتحلي). كان اسم حصان فاتحلي، سردار. كان قد فكر وهو يستعد لعودة تلك المرأة، وقرر أن يجيبها إذا سألت: "اسمي الأوسط هو سردار". حين سأله الصبي الذي يعمل عند الحداد أشعل سيجارته أولاً. حين يخرج من هنا يمكنه شراء الكستناء المقشرة والذهاب لمشاهدة قتال الديكة. صب ما تبقى من عرق في الكأس الفارغة. ضيّقَ عينيه

وشرب نصف الكمية وبلعومه يحترق. حين وضع الكأس على الطاولة أحس أن الطاولة تميل. استند إلى الكرسي. صار يسمع الحديث الدائر خلفه بوضوح أكثر. "... اتضح أنه من أزلام... حين مات المذكور بدأ إيبو الدلّوع إدارة لعب القمار في البيت نفسه. كان تشاقر حسن يرتاد هذا البيت بكثرة. وكثيراً ما كان يخسر. في إحدى الليالي، ربح مبلغاً كبيراً نوعاً ما، فأعطاه إيبو الدلوع قسماً مما ربح وقال سأعطيك بقية المبلغ في ما بعد. فقال التشاقر لقد خسرتُ هنا ما يساوي ثمن قطعة أرض زراعية، أريد نقودي الآن. فضربوه وألقواه في الشارع. لم يستسلم التشاقر. جاء إلى المقهى أكثر من مرة وطلب حقه على الملأ. وفي إحدى الليالي، أطلقوا عليه ثلاث رصاصات في الشارع من الخلف". "على من؟" "على تشاقر حسن". أصابت إحدى الرصاصات إليته، فأصبح ينام في المستشفى ثم في البيت على بطنه طوال شهر. في اليوم التالي لتعرضه لإطلاق النار، أخبر النيابة العامة باسم إيبو. أنكر هذا علاقته بالأمر، لكن حُكم عليه بالسجن سنة ونصف بسبب تسببه في جرح تشاقر حسن. "لحظة يا بني! هاتنا بزجاجة صغيرة وطبق من الخيار باللبن". "أليس هذا كثيراً؟" "دعك من ذلك، يا عزيزي. لم نشرب إلا قليلاً". "وماذا بعد؟" "ثم قال تشاقر أحدنا وجوده نافل. اتضح أنه كان يخطط للأمر وهو منكب على بطنه طوال شهر. حتى أنه فكر أن يرتكب جرماً، بعد إبلاله، كي يدخل السجن". "تفضلوا، هل تريدون أي شيء آخر؟" "لا، شكراً لك... كانت مثل عيني هذا الفتى...". "لا تصب لي كثيراً، لقد تجاوزت حدي المعتاد هذا المساء". "دعك من هذا الكلام، يا عزيزي...". "إن أكثرتُ من الشرب، فهو يزعجني لاحقاً. يكفي". "حسناً! كان لديه في السجن أحد معارفه من قريته. كانت أخبار إيبو تصله عبر هذا السجين. مرت ستة أشهر، وبلغه أنه سيتم نقل إيبو إلى سجن آخر. استعد قبل يوم واحد فقص شعره وشاربيه، وغطى عينيه بنظارات شمسية، وذهب إلى محطة القطار صباح اليوم المحدد وأخذ ينتظر. قبيل الظهر جاء دركيان يقتادان إيبو مقيداً بينهما ووضعاه في الغرفة المخصصة للشرطة في المحطة. بعد قليل حين كانوا يركبونه في القطار المتجه إلى مدينة أفيون، شق طريقه في الزحام وأفرغ رصاصات مسدسه في ظهره. حدث هرج ومرج. أعطى

مسدسه الفارغ للدركي الذي أصابه الجمود. لم يمت إيبو فوراً. حتى مساء اليوم التالي استمر وصول الأخبار إلى السجن، وفحواها أنه ما زال على قيد الحياة وأن الطبيب يأمل إنقاذه. تلك الأخبار توتر أعصاب تشاقر كما لو كان جسمه فوق لوح من الدبابيس. ولم يرتح إلا حين وصل خبر موته أخيراً عند المساء. كان يقول: إن لم يمت، فهو الذي سيقتلني. لكي يريد المرء موت أحد ما إلى هذا الحد...". "هل شنقوه؟" "لا. حين خرجتُ كانت محاكمته مستمرة. لم يطلب النائب العام له عقوبة الإعدام". "قتل عمد...". "صحيح لكنهم أخذوا بالاعتبار حادثة إطلاق النار السابقة التي تسببت في جرح تشاقر". "صحيح". "في السجن، كان تشاقر حسن هذا وصاحبنا عارف...". "صه!" "ماذا حدث؟" "تكلم بصوت منخفض. قد يكون هناك من يصيخ السمع". انحنى زبرجد على الطاولة، وأكل بضع قطع من اللحم البارد. كان البرتقال حامضاً. ألم يتأخر على القتال؟ شرب بضع جرعات من كأسه. شعر بحاجة إلى دفء إنساني...

"آه! بالعافية يا أخي!" كان القائل رجل بشفتين غليظتين وخدين مورّدين. جلس على الكرسي المقابل: "قد انتهى العرق عندك. لنشرب بعضه معاً. أيها النادل!"

ما الذي يمكن قوله في موقف كهذا؟ نهض، وشعر بدوار في رأسه. تمسك بالطاولة وقال: "اعذرني! عليّ أن أذهب إلى مكان الآن".

- هكذا؟ الشرب وحيداً...

مشى نحو الثلاجة، وأعطى النادل القادم نحوه قطعة من النقد الورقي أخرجها من جيبه الخلفي.

- احتفظ بالباقي.

- شكراً! ننتظر زيارات أخرى منكم.

كان الجو أقرب إلى البرود. مشى محاذياً للجدار على الرصيف العريض أمام صف البنوك. تفقد جيبه الداخلية. كانت قلّامة الأظفار هناك. يبدو أنه داس على قشرة برتقال أو بصقة بلغم، فقد تزحلقت قدمه. التصق بالجدار قبل أن يسقط، واستند بيده على الأرض وقام واقفاً. لم يضحك أحد من عابري السبيل. أم لا يرونه؟ انعطف عند الناصية وتوقف. كان بائع الكستناء في مكانه

المعتاد يقلّبُ ثمار الكستناء بالملقط. صرخ من غير أن يرفع رأسه: "كستناء مشوي!" ارتجف زبرجد وشحب وجهه. إن استطاع المرء أن يتقبل نتائج عمله أو لا يكترث لها، فلا شيء مستحيل بالنسبة إليه. أخرج من جيبه ورقة عشر ليرات وانتقل إلى الرصيف المقابل، وقف بجانب بائع الكستناء: "أعطني بقيمة ليرتين، لا أريدها من الثمار الكبيرة".

وزن له البائع ثمار الكستناء المشوية في ميزانه الصغير.

– إذا قشّرتها لي، أعطيك خمس ليرات.

رفع الرجل رأسه ونظر إليه، وقال: "حسناً!" راح يقشر ثمار الكستناء بسرعة، بأصابعه المضلعة ذات الأظفار المتسخة، ويضعها في كيس ورقي. كانت حافات قبعته مدهنة. سترته بلون أخضر غامق، وزرّها الأوسط متخلّع. من الثغرات الصغيرة الفاصلة بين ثمار الكستناء المصفوفة فوق المنقل، تُرى الجمرات الحمراء تحتها. فجأةً قفزت شرارة من إحدى تلك الثغرات، وصرخ البائع: "كستناء مشوي!" ومد إليه الكيس الورقي.

- أذاهب إلى السينما؟

أعطاه زبرجد ورقة الليرات العشر المجعدة في يده اليسرى وقال: "لا". التقط ثمرة كستناء من الكيس وألقاها في فمه.

- من جبل بوزداغ. نوع جيد.

أخذ من البائع ورقة بخمس ليرات، وسأله: "هل عرفتني؟"

- كأنني سبق ورأيتك لكنني لم أعرفك.

ماشياً باتجاه السوق أفرغ ثمار الكستناء في جيبه. دعَك الكيس الورقي ورماه. قال بصوت منخفض: "شخص أبله". مر وسط دكاكين مغلقة وصولاً إلى الشارع الطويل الموحش الذي يتوسطه صفّ من الأشجار. ثمار الكستناء أفضل من التي اشتراها في تلك الليلة؛ هذه مشوية جيداً. مرت بقربه عربة يجرها حصانان. كان مقهى هواة قتال الديكة مضاءً، لكن لا أحد أمام المقهى. اقترب ونظر من خلال الواجهة الزجاجية: هناك ثلاثة أشخاص فقط إضافة إلى صاحب المقهى، اثنان منهم يلعبان طاولة النرد. دخل وألقى التحية، ثم جلس إلى الطاولة التي تبرّز عليها الديك الذي قُتل في تلك الليلة، طلب فنجاناً من

القهوة سكّره وسط. هل الوقت مبكر؟ لم تكن البقعة التي وسّخها الديك واضحة فوق الطاولة الخشبية السميكة التي تقشّر طلاؤها الأخضر الغامق. شتم أحد لاعبي الطاولة النردين، فقال الآخر ضاحكاً: "لا ذنب للنردين". انتهى من شرب قهوته. جاء صاحب المقهى ذي الحاجبين الغليظين والرأس الأصلع لأخذ الفنجان. أعطاه زبرجد ثمن القهوة وسأله عن موعد القتال.

- لا قتال الليلة. هناك قتال ليالي الأربعاء والسبت فقط.

- آه... هكذا؟

- لا تفوّتوا ليلة الأربعاء. سيقاتل ديك تحسين بيه الجديد. قد جاء به، قبل يومين، من مدينة دنيزلي.

تساءل الرجل الذي كان يتابع لعبة الطاولة: "بكم اشتراه؟"

- بدايةً قال صاحبه إنه ليس للبيع، فهو لا يستطيع العثور على ديك مثل هذا. جرت مساومة طويلة بين الرجلين إلى أن لان صاحب الديك أخيراً. يقول تحسين بيه إن الرجل قد أخذ منه ثمن حصان.

- يا له من رجل!

- لا بد أن يفوز في القتال.

نهض زبرجد، وتمنى لهم مساءً سعيداً وخرج، فاصطدمت ذراعه بالباب أثناء الخروج. شعر بتيار ألم انتقل من مرفقه إلى أطراف أصابعه. سوف يبحث عن الصبي في السينما. حين كان جالساً في المقهى كان قد أحس بتوتر في بطنه، لكن بلا ألم. تجاوز امرأةً ورجلاً متشابكي الذراعين يمشيان ببطء. شابان قادمان من الاتجاه المعاكس يتبادلان الحديث، حين مرا بجانبه قال أحدهما: "آه ياه! أنت تمشي متلوياً مثل بول البقر، أيها العم". ضحكا. هل حقاً يترنح؟ هز رأسه وأسرع.

اشترى تذكرة دخول، وقال له قاطع التذاكر: "بدأ الفيلم للتو. حين نعرض فيلمين، يبدأ العرض في السابعة والنصف". صعد الدرجات متمسكاً بالدرابزين المعدني الزلق. دخل قاعة العرض، وعلى الضوء الشاحب للمصباح اليدوي في يد قاطع التذاكر، جرجر قدميه نحو المقعد الذي اختاره في أحد الصفوف الوسطى بجانب الممر. واضح أن القاعة غير مزدحمة. المقاعد المجاورة

شاغرة. كان يسمع من خلفه همسات وأصواتاً منخفضة. ثمة على الشاشة رجلان يتصارعان بالقبضات والرفسات، يقعان على الأرض وينهضان. شعر بدوار. أغمض عينيه. ازداد التوتر الذي يشعر به في بطنه بلا ألم. ترى، هل شرب الكثير؟ نصف زجاجة من العرق بما في ذلك ما تركه في الكأس... سمع صوت تقصّف من شاشة العرض، فاستجاب بعض المشاهدين من الصفوف الخلفية بصيحات حماسية: "هيييه!" هل هو واحد من هؤلاء؟ التفت ونظر باتجاه مصدر الصوت. وجوه غير واضحة في العتمة. أحس بقشعريرة في بدنه. انكمش على نفسه في مقعده. رجل وامرأة يتبادلان قبلة، على الشاشة، بجوار سيارة. حاجباه جافان ثقيلان. قالت المرأة: "لنذهب معاً". قال الرجل: "لا... لا يمكنني أن ألقي بك في المخاطر". "وماذا إذا حدث لك شيء؟" "لن يحدث لي شيء". ضغط بيده على بطنه وفركه. جبينه يتعرّق. يشعر بشيء من الخدر. حتى لو التقى أكرم، فما الذي يمكنه عمله؟ مع ذلك، يمكنه أن يقول له: "لست في حالة جيدة الآن. لنلتقي في الثامنة من مساء الغد أمام هذه السينما". بعد وقت طويل من أصوات إطلاق النار من المسدسات، حدث صمت مفاجئ. صرخ أحدهم: "لا تقفز!" اشتعلت الأضواء. نهض وهو يتمسك بالمقعد. نظر إلى جانبيه وإلى الوراء: وجوه ضاحكة ثرثارة وأخرى عابسة أو غير مبالية. وجميعهم متشابهون، بمن فيهم هو نفسه. يمكنهم أن يفعلوا كل ما في وسع إنسان أن يفعله، حتى لو لم يكونوا مدركين ذلك. بدأت ذراعاه ترتجفان، واتسعت عيناه. ركض نحو الباب، وترنح، وتمسك بشخص جالس على مقعد مجاور للممر. دفعه الرجل قائلاً: "ما بك، أيها السكير القذر!" انهار على أرض الممر. وقعت على الأرض عدد من ثمرات الكستناء. حاول النهوض على ركبتيه. أخرج منديله وضغط به على فمه. شيء نصف جاف لوّث ذقنه. إنه براز الطير في الحديقة. أدرك أنه لا يستطيع أن يتقيّأ، فدس المنديل في جيبه.

- ماذا يفعل هذا السكير هنا؟
- أيها الجيفة!
- ألقوه خارجاً!

استند إلى الأرض بيديه محاولاً النهوض. أمسكه أحدٌ ما من ذراعه وساعده على الوقوف. إنه الشاب الذي قطع تذكرته. قال له: "هيا! امشِ معي. تعال!" اتكأ على الفتى وراح يجرجر قدميه. مرا بين الصارخين الضاحكين حتى وصلا إلى الباب وخرجا عبره. تعثرت قدمه وهو يهبط الدرج.

- على مهلك! تمسّك جيداً. ما الذي جعلك تشرب كل هذه الكمية!

- بطني.

- هل يوجعك؟

- قاسٍ جداً.

حين صارا في الشارع، ترك ذراع الفتى واتكأ على الحائط.

- هل أطلب لك عربة؟ هل معك نقود؟

- نعم، اطلب.

صاح على إحدى عربتي الخيل الواقفتين في الزقاق الجانبي: "تعال يا أخي خليل!"

أحس كأن الدوار خف في برودة الشارع. مشى مترنحاً نحو العربة التي وقفت عند الرصيف، ركب بمساعدة الفتى.

- إلى أين؟

- إلى شارع آلتي لمبلي، فندق الوطن.

- عشر ليرات، مقدماً.

احتج الفتى: "لا تفعلها، يا أخي خليل!"

- أنت لا تتدخل. ما أكثر ما تعاملنا مع أمثاله!

أخرج من جيبه ورقتين من فئة عشر ليرات. أعطى واحدة لسائق العربة، والثانية لفتى السينما: "العفو منك!"

- لا داعي، يا أخي.

حين تحركت العربة ألقى الورقة النقدية على الأرض. اتكأ بظهره على مسند المقعد وضغط بيديه على بطنه. في أذنيه هدير. لماذا تتحرك العربة بهذا البطء؟ كان سائق العربة يضرب بسوطه، بفواصل زمنية ثابتة، ويصيح بصوت

خفيض: ”دييبي!“ لكن ذلك لم يؤثر في حركة الحصانين البطيئة. انحنى فوق يديه وأنّ بصوت واهن.

حين ترجل من العربة أمام الفندق، قال سائق العربة: ”الأضواء مطفأة“. صعد زبرجد الدرجات الثلاث بحذر. أخرج المفتاح من تحت علبة السجائر وثمار الكستناء الباردة. فتح الباب بيده المرتعشة ودخل. وضع الترباس الحديدي بصعوبة. مشى في الظلام باتجاه الغرفة. تأرجحت قاعة الاستقبال إلى اليمين ثم إلى اليسار. فرد ذراعيه، وهبط ملتصقاً بالجدار. حبا نحو الغرفة، وأمسك بالسرير ونهض. ألقى بنفسه فوق السرير.

(الشابان القادمان من القرية لاستعادة المنشفة يقفان إلى جانبي السرير يتبادلان رمي حبل الغسيل بينهما لإحكام ربطه بالسرير يقول الشاب الأشقر هذا لأنك وسّختَ المنشفة يصعد إلى السرير ويجلس فوق بطنه يحرك مؤخرته صعوداً هبوطاً يصرخ

سأستدعي الدرك

هل سمعت يا هذا يقول إنه سيستدعي الدرك

سمعتُ

استدعِ الدرك هيا إن كنت تستطيع

يبتسم يبدأ خلع ملابسه وهو يواصل حركة الصعود والهبوط يخلع السترة والقميص والبنطلون والسروال الداخلي عارياً تماماً هذا فاتحلي ينفتح الباب فجأةً يدخل الضابط المتقاعد في بزته العسكرية يصرخ متسائلاً عما يجري هنا يقفز فاتحلي نازلاً من فوقه ويقف أمام الضابط في وضع الاستعداد

مرني يا سيدي القائد

أي انحطاط هذا من أنت

سردار ابن أحمد

خذه أيها العريف خليل إلى الضابط المناوب خمسة أيام سجن بلا طعام

أمرك سيدي

يقتاد العريف خليل فاتحلي بفظاظة خارج الغرفة يأتي الضابط المتقاعد ويجلس فوق بطنه قائلاً أنت مستقيم جداً

أنا منهك
لا لا كيف حال خاصتك
لا أعرف وماذا بشأن خاصتك
سابقاً كانت متعلقة بي لكنها في المدة الأخيرة أخذت تكرر بإلحاح رغبتها في السفر إلى القرية
إلى قرية في أفريقيا؟
أظن ذلك
أنتم ثقيلون جداً أرجوكم انزلوا من فوق بطني
نعم أنا راحل يتوجب علي أن أهرب وماذا عنكم
لا يمكنني الهرب أنا مرتبط هنا بالموتى والمبنى
حين انصرف الضابط المتقاعد أخذ يشد عضلاته ليقطع الحبل الملتف على جسمه في تلك اللحظة هاجم قط وجهه برفقة أزيز دبور في الهواء).
قفز من نومه ويداه تغطيان وجهه. نزل من السرير وذهب إلى المغسلة متمسكاً بالسرير في الظلام. حاول التقيّؤ لكنه لم يتمكن. أدخل الإصبع الأوسط ليده اليسرى في فمه وضغط بها نحو البلعوم وحركها. شعر بغثيان، فجرب مرة أخرى. أخيراً تقيأ مع صوت مرتفع. انخفض التوتر الذي كان يشعر به في بطنه. غسل يديه ووجهه ثم جففها. جلس على حافة السرير وخلع ملابسه. ارتعش جسمه، فاندس تحت اللحاف من غير أن يغسل قدميه.
(دخل عبر الباب المفتوح لمحكمة الجنايات مقيد اليدين محاطاً بدركيين مزودين بالحراب كان ثمة رجل مسن واقف بجانب الباب يفحص الذباب الذي يريد الدخول فيسمح بدخول الإناث ويطرد الذكور يقول شخص ما إن ابنته في الداخل حين فكوا قيوده داخل القفص رأى القضاة الثلاثة الجالسين وراء المنبر وأوسطهم الضابط المتقاعد الذي ابتسم له وقال طبيب الأسنان الجالس في مقعد محامي الدفاع إن كل شيء تمام أربعة رجال بشوارب سوداء يرتدون ملابس موحدة يأتون من صفوف الجمهور ويشدون على يده قائلين أطال الله عمرك يصرخ القاضي بهم قائلاً اجلسوا في أماكنكم اليوم هو يوم مرافعة الدفاع يقف المحامي ويُخرج من حقيبته بضعة أوراق يقرأ منها أيها

السادة القضاة من مسافة يوم ضوئي في الفراغ اللانهائي حيث بائع الكستناء عند زاوية المبنى التجاري تقفز من منقله شرارة حول قطعة النار الشبيهة بتلك الشرارة تراب يدور ببطء يتحركون فوقه ولا يعرفون ما يفعلون حتى لو لم يقتل أحدهم الآخر فهم يعرفون أنهم سيموتون يطرحون أسئلة يضرب القاضي بمطرقته على المنبر ويقول واضح أنكم بنيتم دفاعكم على حق القتل لا يناقش هذا الموضوع في هذا المكان هنا يجري تكييف عمل ما بما يتناسب وأحد القوانين يعيد المحامي الأوراق داخل حقيبته ويخرج منها مجموعة أوراق جديدة يقرأ منها سادتي القضاة يجب أولاً أن نأخذ بالاعتبار أن المتهم الذي أخذت على عاتقي الدفاع عنه حين قدم إلى محكمتكم هو رجل وكحاله في غالبية الليالي في السنوات العشر الماضية باستثناء الأسبوعين الأخيرين دخل غرفة تلك المرأة التي لا تستيقظ بسهولة في الليلة الفاصلة بين الثلاثين والحادي والثلاثين من أكتوبر وعراها من ملابسها وهي نصف نائمة نصف مستيقظة ثم – عذراً على التعبير – علاها رفع القاضي يده قائلاً واضح أن دفاعكم يخص موضوع موت المرأة نعم سيدي الرئيس يغمز الضابط المتقاعد ويقول في حين أن المتهم يحاكم بتهمة قتل القط وليس المرأة يعيد المحامي الأوراق إلى الحقيبة ويخرج ورقة أخرى يقول إنه من المفيد التفكير في جميع الاحتمالات بصورة مسبقة ويبدأ القراءة لكن صرخة قادمة من الخلف تقاطعه كفى! إنه خالها واقفاً في الصفوف الخلفية بملابس بيضاء من الكتان أبوها وأمها موجودان أيضاً ما الذي أتى بك إلى هنا تحدث فوضى في القاعة يصرخ القاضي قائلاً اطردوه خارجاً الدرك والرجل الواقف عند الباب والجمهور يتراكضون وسط هذه الضجة يسمع صوت القاضي بوضوح وهو يقول تؤجل الجلسة إلى الثامن والعشرين من نوفمبر).

## صباح الأحد

لم يدرك أن المدة الطويلة التي أمضاها في السرير، وجسمه ووجهه يحترقان في نار الحمى، ورأسه وقدماه يتضخمان، يصارع الأحلام والكوابيس، وكثيراً ما

يقفز على صوت القط يندفع من بعيد وينقضّ على وجهه، أو هادئاً كأن شيئاً لم يحدث، فيقصد دورة المياه على بعد خطوات من السرير، ويشرب الكثير من الماء على معدته الفارغة، لا تتجاوز اليومين... إلا بعدما تحسّن وضعه في الصباح التالي على ليلة استيقظ فيها على حلم وقال بصوت منخفض: "حسناً، ليكن ذلك في الثامن والعشرين من نوفمبر"! ارتدى ملابسه على مهل، ووقف أمام المرآة وحلق لحيته التي "بعمر أربعة أيام أو خمسة" متمهلاً متوقفاً مستأنفاً، ثم دسّ في جيبه ساعته المتوقفة على التاسعة واثنتي عشرة دقيقة (الساعة ذات المنبه فوق خزنة النقود متوقفة على الثانية عشرة إلا ثماني دقائق) ومضى إلى المحطة، في جو بارد كئيب ينذر بالمطر، حيث اشترى صحيفة تحمل تاريخ الخميس 7 نوفمبر. إذا أريد الانتباه إلى بعض التفاصيل، أو تفصيل بعينه (كـ28 نوفمبر)[9]، أو أريد البحث عن اليقين (كحاله حين حمل شاربه إلى خبير بعدما واظب على رؤيته في مكانه طوال يوم كامل)، ثمة حاجة إلى توكيد أو شهادة من آخرين حتى لو كانت غير مباشرة. ساعة المحطة الكبيرة تشير إلى الحادية عشرة وسبع عشرة دقيقة. ضبط ساعته وعبّأها، ثم قصد مطعماً قريباً تناول فيه الطعام. "لا أنا بالميت ولا بالحي..."، كان هذا من أغنيةٍ يصدح بها صوت رجالي غليظ من مذياع مقهى مجاور للمطعم، أغنية تضيع أكثر كلماتها قبل أن تصل إليه. انتهى من أكل طعامه ونهض مغادراً. سأله النادل وهو يعيد إليه بقية الحساب: "هل حضرتك خارج من مستشفى؟" في طريق عودته، حين دخل الشارع من الساحة الواقعة خلف المحطة، فوجئ برؤية تلك اللافتة المعدنية على شكل سهم التي ثبتها أبوه قبل سنوات على جذع شجرة الصنوبر، وقد نسيها تماماً لأنه لم يذهب طوال السنوات السابقة إلى ما بعد محل الحلاق... فوجئ بأنها متدلية إلى الأسفل وتشير إلى الأرض وقد تقشر طلاؤها في بقع عدة. إنها مثبتة على ارتفاع لا يمكن بلوغه باليد. أدار وجهه ومشى على الرصيف الأيسر كي لا يراه الحلاق. دخل الفندق ونام.

9 في 28 نوفمبر/ تشرين الثاني 1938، فُتحت وصية أتاتورك التي كان قد أملاها في سبتمبر/ أيلول.

إنه الآن في السرير. استيقظ قبل قليل. مطر وظلام. صار أكثر ارتياحاً في النوم منذ اختار أحد الاحتمالات واتخذ القرار. لم يعد يشعر بذلك الثقل في رأسه وقلبه في لحظة استيقاظه كحاله في الأسبوع الماضي. مع ذلك، حين يرتج المبنى، من حين إلى آخر، بفعل مرور سيارة ثقيلة من الشارع أمامه، تراوده فكرة احتمال انهيار هذا المبنى الذي نجا قديماً من بداية حريقين ومن الحريق الكبير، وكذا من عدد من الزلازل، فتظهر الجثة ويكتشفها الناس. حتى لو بقي على قيد الحياة، بعد هذا الانهيار المحتمل، سوف يكون لديه الوقت الكافي لتجنب الوقوع في أيدي الآخرين. كان يتحرج ويخجل من أولئك البشر الذين لا يعرفون أنه لا يمكن البقاء على قيد الحياة إلا بارتكاب جرائم، ويظنون أنفسهم أبرياء. له يومان وهو يذهب لتناول الطعام مطرقاً ولا ينظر إلى وجه صاحب المطعم حين ينقده الحساب، ويعود أدراجه مطرقاً أيضاً. وفي المساء، يتناول طعامه قبل حلول الظلام كي لا يرى أحد الضوء مشتعلاً فيطرق الباب. في غرفة المؤونة بجانب طاولة المكتب، يعد الشاي ويأكل الخبز والجبن والسجق، ثم يخلع ثيابه وينام مبكراً. وفي النهار أيضاً، يمضي معظم وقته في السرير. رنّ جرس الباب البارحة بعد الظهر، فلم ينهض ويفتح الباب ليرى من هناك. حين خرج، في المساء، إلى قاعة الاستقبال رأى ورقة مدسوسة من تحت الباب: إنذار بقطع الماء والكهرباء ما لم يتم تسديد ديون الفندق حتى نهاية الشهر. ثمة جرسان مرتبطان بالزر الموجود على الباب الخارجي أحدهما في العلّيّة. قطع السلك الواصل إليه. صعد إلى الأعلى ووقف أمام باب غرفة عاملة الفندق. تشمم الهواء، فلم يشم رائحة الجثة. في طريقه نزولاً، وقف في منعطف الدرج وفتح إحدى درفتي النافذة المطلة على الباحة. ثمة غيوم منتفخة في الجبل فوق قلعة طوب كالة. حين كان طفلاً كثيراً ما وقف هنا، قبيل الإفطار في رمضان، بانتظار رؤية التماع طلقة المدفع. وتكون مائدة الإفطار جاهزة في الطابق الأعلى. كان التماع شرارة الطلقة يسبق صوت المدفع بثوانٍ، ويصرخ زبرجد معلناً لحظة الإفطار، ويصعد الدرج راكضاً، فيرى أمه وهي تلفظ نواة تمرة، وأباه يلفظ نواة ثمرة زيتون، في راحتي يديهما. أمه تقول: "بفضل ابني، نفطر قبل الجميع". كانت لا تحب الزيتون. حين هربوا إلى

الجبل عند اندلاع الحريق الكبير، وزعوا ما حملوه معهم من طعام على الأولاد الجائعين السارحين في الجوار، فتضوروا جوعاً في اليوم التالي. رفضت أن تأكل من الزيتون الذي قدمه أحد معارف رستم بيه، فألحوا عليها وأرغموها على تناول بضع لقيمات من الفطائر القليلة المخصصة لسمرا هانم لأنها مرضع لطفل بعمر أربعة عشر شهراً. حين صعدوا إلى الجبل خصصوا أحد الحصانين لحمل سجادتين وأغطية من الصوف وخرجٍ فيه مأكولات وقطع ذهبية وأساور وأقراط ولآلئ، وكان يجره الحوذي. ركبت سمرا هانم الثاني، وابنتها التي في السادسة وراءها، وابنها في حضنها. كانت فارسة بارعة كالفرسان الرجال. علّمها أبوها، قبل أن تتزوج، في مزرعة جدها الصغيرة في منطقة توربالي. بعد يومين، حين تحقق تحرير المدينة، ركب رستم بيه والحوذي الحصانين ونزلا إلى البلدة التي يتصاعد منها الدخان، خشية أن يتعرض البناء للنهب، وتبعه الآخرون سيراً على الأقدام، وكان الصبي في حضن أمه طوال الطريق، فإذا حاول أحد ما أخذه، صرخ رافضاً. إنه فاروق. لقد أطلقوا اسم ذاك الذي شنق نفسه على الأطفال الثلاثة الذين ولدوا بعد الحادث، فمات فاروق الأول وعمره أربعة أشهر، ومات الثاني بعد شهرين ونصف على ولادته، وبقي الثالث على قيد الحياة.

استدار على يمينه. كان الماء المتدفق من أنبوب التصريف في الباحة، وذاك الذي يقطر من قرميد سطح الإسطبلات والرواق يتناقص باطراد. ثمة مثلث من الضوء الباهت في الزاوية العليا اليمنى. ربما مصدره أحد مصابيح الشارع البعيدة، أو من غرفة مريض تحت المراقبة. أخرج ذراعيه من تحت اللحاف. كانت الغرفة دافئة. فقد أشعل المدفأة لبعض الوقت في المساء قبل أن يضطجع. استقام في السرير نصف استقامة، ومد يده في الظلام إلى علبة السجائر وعلبة الثقاب فوق الخزانة الصغيرة. أشعل سيجارة، وقرّب عود الثقاب المشتعل من الساعة: الخامسة والثلث. وضع المنفضة النحاسية فوق اللحاف وتمدد. كم هي طويلة الأيام! "لا أنا بالميت ولا بالحي". ما زال أمامه ثمانية عشر يوماً. جده هاشم بيه حين حُبِسَ في تلك الغرفة في الطابق الثالث لم يتحمّل أكثر من خمسة أيام. "كأن ذلك الرجل الكبير قد ذاب بسرعة. لم

نعد نسمع صوته. كنتُ أرمي فضلاته وأعطيه طعامه. كان لا يكاد يأكل. ويتظاهر بأنه لا يسمع صوتي، ويثبت نظراته على السقف. حين دخلتُ عليه في ذلك الصباح وجدتُ مبولته فارغة. سألني عمن أكون، فقلتُ له: "أنا سعيدة يا خالي". فطلب مني استدعاء نور الدين. قلتُ له: "أخي نور الدين مات منذ وقت طويل، يا خالي. أتريدني أن أستدعي لك أخي رستم؟" فأدار وجهه بعيداً وقال: "أعطوا طيوري لعلي الأشقر". سوّيتُ وضع لحافه المنزلق إلى الأرض. كانت ذراعاه ترتجفان. ألقى برأسه يميناً ويساراً، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما. خرجت إلى البهو وصرختُ. جاء أخي رستم راكضاً ودخل الغرفة. ركع على الأرض وانكبّ بوجهه على السرير". قالت إن أحداً لم يكن يعرف علي الأشقر الذي ذكره هاشم بيه في كلامه الأخير. سألوا عنه فلم يصلوا إلى أحد يعرفه. ربما كان أحد أصدقائه من الشباب ممن يهتمون مثله بالحمام. كان نور الدين ابنه البكر من زوجته الأولى حفصة هانم.

أطفأ سيجارته، ووضع المنفضة فوق الخزانة الصغيرة. لقد توقف المطر. ولم ينطفئ بعد ذلك الضوء الباهت في زاوية الستارة. كان أبوه يقول: "نبّه الضوء" بدلاً من "أشعل الضوء". لم يكن يحتمل البقاء في الظلام. كان قليل الكلام عن أقربائه. ربما كي لا ينكأ جرح فقدانهم بصورة جماعية تحت الأنقاض، في حين أن أمه كانت تعود دائماً إلى الحديث عن الأزمنة القديمة، فتتحدث مطولاً عما رأته وسمعته. كانت تقول إن حفصة هانم هي من سلالة مولانا جلال الدين الرومي، من الشلبية، شقيقة عبد الكريم الشلبي الذي كان في ذلك الزمن يدير التكية المولوية في البلدة. حين ضبطت زوجها مع إحدى اليتيمات فانسحبت إلى إحدى الغرف المطلة على الشارع في الطابق الثالث كانت في الثامنة والعشرين وأماً لطفلين. أثار انزواؤها قلق أقربائها، فتوسلت إليها سلفتها وزوجة أخيها وقالت لها حماتها: "هو رجل. هذا يحدث. لو تعرفين كم غضضنا البصر عن سلوكات أزواجنا!" فقالت حفصة هانم: "لا يمكنني أن أنظر في وجهه؛ أشعر بالخجل. فليتزوج بأخرى". ملأ القيل والقال البلدة. فقال بعضهم إن حفصة هانم قد طلّقت زوجها. وظل هاشم بيه بعيداً حتى أنه لم يمر لرؤية طيوره لبضعة أيام. ذات ليلة صعد إلى الطابق الثالث ودق على باب

غرفتها وناداها. وإذ لم تفتح له كسر القفل ودخل. وجد الطفلين في السرير يبكيان، وحفصة أمام النافذة المفتوحة. هددته بأنها ستقفز من النافذة إذا اقترب منها. استدار هاشم بيه على أعقابه وانصرف، ولم يصعد إلى غرفتها بعد ذلك أبداً. لم تغادر حفصة هانم البناء لأنها لم ترد أن يُحرم ابنها وابنتها الأب. استقرت في الطابق الثالث، فإذا احتاجت النزول، غطت رأسها. حين تزوج زوجها مجدداً تفاهمت المرأتان جيداً. كانت تخاطب نبيلة هانم بـ"ابنتي" مع أن الفارق بينهما عشر سنوات فقط. "منذ فتحت عينيّ على الحياة رأيتُ زوجة أخي الكبيرة. حين ماتت أمي قبل إتمام الأربعين جاؤوني بعمتي لطفية كمرضعة وبرفقتها ابنتها ذات الأشهر الثلاثة. في تلك المدة، كانت زوجة أخي الصغير ترضع رستم لكن حليبها لم يكن يكفي كلينا. نقلتني زوجة أخي الكبير إلى غرفتها، فكانت تهز سريري وتنظف تحتي وتعتني بي إذا مرضت. حتى أنها كانت لا تسمح لابنتها التي تكبرني بثماني سنوات بحملي في حضنها خشية سقوطي من يديها. كانت أختي الكبرى مسرّت مجنونة شقية، تطلي وجوهنا بشحّار أسفل المقلاة ونحن نيام، وتغرز إبراً في المقاعد، وتدلق الماء على عابري السبيل من نافذة العلية، وتتزحلق فوق درابزين الدرج. بمرور الزمن، صار عدد الأطفال في البناء، بمختلف الأعمار، ستة. أكبرنا نور الدين وقلما شاركنا في اللعب، فقد كان يغلق على نفسه باب غرفته مع كتبه. كنا لا نرغب في الابتعاد عن زوجة أخي. كانت تحكي لنا حكايات. زوجتا أخي لم تميزا أطفالهما عني. ليكن مثواهما من نور، كانتا تشتريان لي مثلما تشتريان لبناتهما. كانت تمشط شعري في الصباح وتجدله، وكثيراً ما قبّلتني، أثناء ذلك، من نقرتي قائلة: ما أجمل شعر يتيمتي. حين هربت أختي الكبرى مسرّت مع ابن الخولي، انهارت زوجة أخي في بضعة أيام، فبدا كأن وجهها استطال وتغضن. كانت تربط رأسها دائماً، وتطلب مني، من حين إلى آخر، أن أفرك لها عنقها وصدغيها. وتبتلع الأفيون. باتت لا تعرف بم تتفوه. تلك المرأة التي دست الفليفلة الحارة في فم طفلتها لأنها قالت، بعدما تزحلقت قدمها فوقعت على الأرض، إن مؤخرتها توجعها، أخذت تتحدث، في يومها الأخير، عما يفعلانه، هي وزوجها، في غرفة النوم، بكلمات مكشوفة لا يمكن التلفظ بها". طرد هاشم

بيه الخولي، وأعلن تنكره لابنته، لكن نبيلة هانم استطاعت، بعد توسلها وتذللها، أن تجعله يمنحها، فوق الجهاز، بستاناً مساحته عشرة دونمات. أثثا بيتاً صغيراً في تشاي باشي ولم ينجبا. في يوم من الأيام، بعد مرور سنوات، كان زوجها يصطاد السمك في النهر بشبكة، وعلقت قدماه بجذوع الصفصاف فغرق. دعوها للإقامة في البناء لكنها رفضت. كانت تعتني ببستانها بنفسها وتحكي ضاحكة كيف أن الرجال يحيونها ظانين أنها رجل حين يرونها. في أيام الصيف، وهي في طريقها إلى البستان أو عائدة منه، تدخّن لفافات التبغ فوق ظهر الحمار. في يوم مماثل من أيام الصيف، قرابة المساء، كانت عائدة إلى البيت فوق ظهر دلدل وخرجُها مملوء بالأعشاب الجافة. يبدو أن شرارةً من لفافتها وقعت فوق العشب فاشتعلت فيه النار. وإذ حاولت إطفاءها بيديها اشتعلت ملابسها، فألقت بنفسها على الأرض، وراحت تركض خلف الحمار والنار مشتعلة في ملابسها وشعرها، إلى أن وقعت على الأرض. هرع لنجدتها رجلان كانا منهمكين في ذري التبن هناك فأطفآ النار لكن الحروق كانت في كل مكان من جسمها. وفي الليلة نفسها، ماتت.

ارتج سريره. إنها ثاني سيارة تمر أمام الفندق منذ استيقاظه. التفت ونظر إلى النافذة: بقعة الضوء المثلثة في زاوية الستارة اختفت. الغرفة غارقة في الظلام. الوقت مبكر على إطفاء أنوار الشارع. ربما نام المريض أو مات. "لا أنا بالميت ولا بالحي". ثمانية عشر يوماً... خاله الأكبر نور الدين خرج من حجرته في تكية الخَلوَتية قبل اكتمال خلوته بثمانية عشر يوماً، وقال: "لقد أتممت أيامي". شعره ولحيته اللذان كان قد حلقهما قبل الخلوة طالا وشحب وجهه ونحَلَ جسمه فتهدّل ثوبه عليه. كان يأخذ من صينية الطعام التي توضع أمام غرفته، مرة في الصباح ومرة في المساء، قطعة خبز وبضع حبات من الزيتون، أثناء عودته مطأطئ الرأس من دورة المياه التي يقصدها مرتين. قال له شيخ التكية إسماعيل دادا: "نحن عدَدْنا اثنين وعشرين يوماً، يا بني". فرد عليه: "عندكم خطأ. لقد أكملت أربعين يوماً". ضحك الدراويش الآخرون، فرفع الدادا يده: "صحيح، ربما نحن أخطأنا في العد". ترنح نور الدين وانهار على الأرض. نيّموه في إحدى الغرف واستدعوا أباه. قال الطبيب الذي أحضره

هاشم بيه إنه لا يعاني من مرض، بل تمكن منه الإرهاق، وسوف يتحسن قريباً. فتح نور الدين عينيه لحظة وابتسم قائلاً: "كم كل شيء جيد يا أبي!" ومات صباح اليوم التالي. كان في الثامنة والعشرين. الرجل العجوز في الحديقة مخطئ، فمن شاع عن علاقته بزوجة الطبيب ستافرو الشابة هو نور الدين وليس رستم بيه. هو تكتم على الأمر. وفقاً للشائعات كان يلتقي بها في بيت إحدى الخطّابات. ربما انطلقت تلك الشائعات لأن نور الدين حكى مع خاله، بعد بضعة أيام من الموت المفاجئ لزوجة ستافرو التي قيل أن زوجها سممها، ودخوله التكية المولوية، أو لأن الخطّابة كانت تتباهى وتقول بنظرة ذات مغزى: "كانا يزوران بيتي". أعطى عبد الكريم شلبي ابن أخته وظيفة مكتبية لكنه رفضها، وكرّس نفسه للدروشة فانضم إلى الخدم الذين يقومون على أعمال الترتيب والنظافة في التكية كمرحلة تسبق تقليد السماح. كان يُختار اثنان من هؤلاء الصبية ممن لم ينبت شعر وجههم بعد لخدمة عبد الكريم شلبي، فيرتبان غرفته وفرشته ويحضران طعامه ويصبان الماء على يديه، ويمكن تبديلهما بغيرهما إذا اقتضى الأمر. لم ينسجم نور الدين مع جو التكية. لم يكترث لتأسف خاله ولا لمن اتهموه بالردة، فغادر التكية بعد أقل من شهرين، وقصد شيخ الطريقة الخلوتية إسماعيل دادا، فقبّل يده، وإذ سألوه عن سبب مغادرته التكية المولوية، قال: "يبحثون جميعاً عن راحتهم. يأتون ليأكلوا ويشربوا ويثرثروا". منذ يومه الأول دخل خلوته في إحدى حجرات التكية بعد مراسم وجيزة.

حرك يديه على صدره وبطنه وفخذيه. أليس اختبار قدرة الجسد على التحمّل نوعاً من الانتحار؟ إذن، تحمّل وصمد اثنين وعشرين يوماً يجلس وينام على حصيرة في غرفة باردة يغطيه غطاء من الشعر، بلا اغتسال، بلا طعام غير كسرة خبز وبضع زيتونات. فرك عنقه. في الثامن والعشرين من نوفمبر، سيكون قد أكمل أربعين يوماً. آخر سلالة آل كججي. لا يعتبر ذلك المقيم في إسطنبول. فقد نسي المذكور البناء الذي ولد فيه. حين جاء، قبل خمس سنوات، ليبيع دكانين ورثهما عن أجداده، لم يكلف نفسه الصعود إلى الطوابق العليا لمعاينة وضع ممتلكاته. لم يبقَ منهم في البلدة غير هذا البناء وقبور

الموتى. لقد جاؤوا إلى هنا قبل قرون واستقروا. في عهد السلطان محمد الصياد[10]، عمل محمد آغا كججي زادة لزمن قائداً في القوات الانكشارية. أثناء إحدى حركات تمرد الجنود الانكشاريين في إسطنبول، لعب ابنه دوراً في قمع التمرد، فكوفئ باقتطاع قريتين. وفي بدايات القرن التاسع عشر، استصلح زينل آغا مئات الدونمات من الأراضي الحرشية للقريتين على ضفتي النهر، وكانت تستخدم إلى ذلك الحين كمراعٍ للماشية، بكد أهالي القريتين، بعدما وعدهم كاذباً بالمناصفة في ملكية الحقول الخصبة. من محاصيل تلك الحقول والمزارع القديمة، بنى واشترى دكاكين. وبنى ابنه مالك آغا هذا البناء. كان يقال: لو أن آل كججي خلعوا أبواب بيوتهم ودكاكينهم وباعوها، لعاشوا بثمنها سنوات. لم يكن مالك آغا يترك الخوليين والمرابعين يتصرفون في العمل على هواهم، فكان في أوقات الزرع والحصاد يتجول في السهل فوق حصانه، ولا يعود إلى البيت قبل أذان العشاء، واستمر في هذا إلى أن مرض وأقعد في الفراش. حين مات في الخامسة والستين، كان ابنه في الثلاثين وكنّتُه حبلى بنور الدين. لم يكن هاشم بيه يبدي كثيراً من الاهتمام بأراضيه، فاغتنى الخوليون والمرابعون مما سرقوه من محاصيل المزارع والحقول وكروم العنب والزيتون. كان سخياً ينفق النقود بلا حساب. ويربي مئات من طيور الحمام من كل السلالات في الباحات المسوّرة بالجدران العالية لعنابر الغلال على ضفة النهر وبقرب البناء القديم الذي احترق في الحريق الكبير عند سفح الجبل. كان يعتني بالطيور عمالٌ برواتب شهرية. ويحدث أن يشتري زوجاً من الحمام بعشر ليرات ذهبية أو نحو ذلك. ويحدث أن يهاجم صقرٌ رف حماماته وهي تطير وتلعب في الهواء فينقض من الأعالي ويخطف إحدى الحمامات، فلا يتحمّل هاشم بيه هذا المَصاب، فيدفع ليرتين ذهباً لمن يأتيه بصقر أو عُقاب ميت. النقود التي تصرف في رمضان والأعياد والأعراس وحفلات الختان، والجهاز الذي يُشترى للبنات واليتيمات بمناسبة زواجهن، وخيول جر العربات، وخيول للركوب، والخدم... ”تزوج أخي الكبير رستم بعد ثورة الحرية بشهرين ونصف. لثلاثة أيام، طُهي الطعام في الحلل والزرائب، وأكل الجميع وشربوا،

ثم تحرك موكب كبير إلى إزمير لإحضار العروس. خمسة أزواج من عازفي الطبل والزمر، وعازفي الآلات الوترية، وراقصون وراقصات، وعربة العروس المزينة التي تجرها أربعة أحصنة بيضاء...“. بيعت عشر دكاكين بعد العرس. كان رستم بيه مثل أبيه، فلم يبنِ دكاكين جديدة محل التي خسرها في الحريق الكبير، وبيعت عقارات. في الثلاثينيات، هبطت أسعار الحنطة إلى قرش واحد، والعنب المجفف الخالي من البذر إلى ثلاثة قروش، فتم الاحتفاظ بالعنب على أمل ارتفاع سعره في أكياس مسطحة تراكمت بعضها فوق بعض، ففتحت فيها الفئران ممرات وأسست فيها جحورها، وأكل العث الشعير، وكان رستم بيه يأتي من إزمير كل شهر ليقبض إيرادات الفندق، ويقول: ”كاد البيت يعتمد في مصروفاته على هذه الإيرادات حصراً“. في تلك السنوات الصعبة، بيعت أراضٍ كثيرة بأثمان بخسة، فلم يبقَ بعد ذلك إلا قطع قليلة من الأراضي الزراعية والكروم باعتها بنات رستم بيه الثلاث المتزوجات المقيمات في إزمير بعد موت أبيهن في 1955، وتقاسمن ثمنها بينهن. أما فاروق بيه، فنصيبه من الميراث هو الفندق ودكانين. جاء فاروق بيه من إسطنبول، قبل خمس سنوات، ليبيع الدكانين، وقال ضاحكاً: ”لن أبيع الفندق، فهو يعطيني ثمن سجائري“. لقد نام، في تلك الليلة، في هذه الغرفة، وعلى هذا السرير الذي وُلد عليه كلاهما. قال إن أمه مقيمة معه في إسطنبول. لعلها ما زالت على قيد الحياة، وعمرها خمسة وسبعون. قالت، بعد الحريق، إنها لا تستطيع أن تعيش في هذه الخرابة. ”لدينا بيت هناك، ستكبر البنات وسيكون الولد في مدرسة“. استقروا في إزمير في بيت خلّفهُ القول آغاسي في منطقة كوكار يالي. قديماً كان ثمة بيت مجاور لهذا تزوجت فيه فرهوندا، الابنة الصغرى لهاشم بيه، قبل حركة الحرية بعام واحد. في هذا البيت، رأى رستم بيه، للمرة الأولى، الفتاة التي امتدحتها أخته وستصبح لاحقاً زوجته. قالت له إنها سمراء، جذابة، طويلة القامة، ناهدة الصدر، شعرها أسود وعيناها سوداوان، رموشها طويلة، أنفها دقيق، شفتاها رقيقتان، على ما وصفتْها له. حين تزوجا كانت في العشرين وزوجها في الثالثة والعشرين. فاروق الذي انتحر في الصيف التالي لتخرجه في المدرسة السلطانية في إزمير، كان يقيم في فصل الشتاء، في سنتي

دراسته، عند أخته في ذلك البيت. ولم يكن يعود إلى البلدة قبل انتهاء العام الدراسي. كانت نبيلة هانم تذهب برفقة هاشم بيه، من حين إلى آخر، لرؤية ابنتها وابنها الصغيرين، وتقول له: "تعالَ مرة في الشهر، اركب القطار بعد ظهر الخميس، وعد إلى إزمير مساء الجمعة". فكان يرفض رجاءها قائلاً إن عليه أن يهتم بدروسه. فيعود إلى البناء، أوائل حزيران، وينتقلون جميعاً، بعد أيام قليلة، إلى كرم العنب ذي البرجين في آزماكالتي، ولا يعودون قبل انتهاء موسم العنب في مطلع أيلول. بعد وفاة كل من فاروق وأمه لم تذهب العائلة إلى الكرم إلا في ثلاثة أصياف. فقد توقفوا عن الذهاب إلى الكرم خوفاً من المجندين الفارين من حملة سفر برلك، ومن غارات العصابات خلال السنوات الثلاث بين مجيء اليونانيين ورحيلهم. كانت سمراء حزينة لأن الصيف فقد مذاقه كما كانت تقول. كذلك لم تتمكن من الاستمتاع بالصيف التالي لزواجها ومجيئها إلى البلدة. فقد كانت حبلى ولا تستطيع ركوب الحصان. ربما غافلت زوجها في أحد الأيام وركبت الحصان، ففي الخريف، أنجبت حملها الأول ميتاً. في الصيف التالي، كانا يركبان حصانيهما كل يوم تقريباً وقت العصر، ويعودان في المساء. كان العرق يغطي الحصانين، فيجري الحوذي جولة صغيرة معهما قبل إدخالهما الإسطبل. كان فاروق يرافقهما لكنه يفترق عنهما بعد مسافة قصيرة ليترك الزوجين معاً. وفي بعض الأيام، لا يرغب في مرافقتهما، فتعلّق سمراء عليه ضاحكة مستفزة إن "ابن حميها الصغير" يخشى الخسارة في السباق. كانت تدعوه بابن حميها الصغير. وفي أحد الأيام، رد عليها: "وهل أنت كبيرة جداً؟" فقالت سمراء إنها أكبر منه بأربع سنوات. "هل هذا قليل؟" كان أخي الكبير رستم يلح عليه أيضاً كي يرافقهما: "هل تريد أن تخجّلني؟" ونبيلة هانم تودعهم بدعواتها. في إحدى الأماسي، تعثر حصان أخي رستم حين كان يركض به بسرعة في حقل محصود، فوقع على الأرض. صرخت زوجته فزعة، فقفز فاروق على الأرض قبل أن يوقف فرسه، وركض نحو أخيه الكبير الممدد على الأرض بلا حراك قائلاً: "بسببي". كان هناك بعض الدم على جبينه، وانكب فاروق عليه. ثم اتضح أن أخي رستم كان يمثل دور الميت من باب المزاح، فعانق أخاه وقبّله. عادوا إلى البيت ضاحكين مبتهجين في ذلك المساء. كانت

العلاقة بين الأخوين جيدة أصلاً، لكن بعدما تزوج الأخ الكبير صار فاروق أكثر تعلقاً واهتماماً به، ويلبي كل طلباته. وفرسه... قبل بضعة أيام على موته، حل المساء وأظلم الجو ولم يرجع فاروق بعد. زوجة أخي شعرت بالقلق عليه. خرج الرجال راكبين أحصنتهم للبحث عنه، ورافقت سمراء زوجها. وجدوه عند سفح جبل على طرف كرم زيتون. كان جالساً يحرس جثة فرسه التي ماتت، وقال إنه لن يسمح أن تأكلها بنات آوى. فقطروا جثة الفرس إلى الأحصنة الأخرى وجروها إلى البلدة حيث حفروا تلك الليلة حفرةً دفنوها فيها.

10 محمد الرابع (1642-1693) السلطان التاسع عشر للدولة العثمانية، وخليفة المسلمين رقم 98. هو ابن السلطان إبراهيم. وصعد إلى العرش، بعد الإطاحة بأبيه، في السادسة من عمره.

ازداد تواتر مرور السيارات في الشارع. سمع صوت قطار. ترى، ما الذي كان يدور في ذهنه وهو يقود فرسه حتى الموت؟ هل وصل في ذلك المساء إلى آخر الاحتمالات؟ إن كان قد صرخ قائلاً "بسببي" حين ظن أن أخوه مات، فهذا يعني أنه كان يفكر في موته، فيشعر بالذنب. حين تزوج أصبح يهتم به كثيراً ويلبي جميع طلباته. وفُسِّرَ هربه من زوجة أخيه على أنه احترام لها، فلم يفهم أحد حقيقة الأمر. ربما كانت نبيلة هانم وحدها تحس. ألم تعرف سمراء أيضاً؟ لعلها كانت تعشق زوجها إلى درجة لا تلاحظ معها نظرات ابن حميها الصغير المختلسة أثناء تناول الطعام أو الرحلات على ظهور الأحصنة. وإن كانت أمه قد قالت إن "الزوجين كانا يذهبان في الليالي الحارة سراً إلى ضفة النهر، ويعودان قرابة الصباح إلى البرج"، فهذا يعني أنها كانت تنتظر في الظلام أمام النافذة. تنتظر أخيها رستم؟ في تلك الليالي، كان فاروق يخرج بدوره خفيةً من البرج لكنه يرجع قبلهما بوقت طويل. ربما بعدما حدث في إحدى الليالي التي أرقته حرارة جوها فنهض وذهب نصف عارٍ إلى النهر، فرأى، على ضوء القمر، أخاه وزوجته متمددين أو نائمين في فسحة صغيرة محاطة بالأشجار على ضفة النهر، في كثير من الليالي التي كانوا يتناولون فيها العشاء على ضوء الرماد المعجون بالزيت المشتعل في صفائح عريضة وقصيرة منصوبة على أربعة أعمدة خشبية ثخينة مغروسة في الأرض في الفسحة بين البرجين التي تُرش بالماء قبيل غروب الشمس وفرشها

بالحصير... كان يرغم نفسه على تناول ألوان الطعام التي تعدها الطاهية قدرية بمساعدة اثنتين من اليتيمات، كي لا يثير حزن أمه التي لا تفارق عيناها يديه... في نهاية العشاء، تتثاقل الألسنة ويقل الكلام، فينهض ويدخل غرفته أولاً ويضطجع، كي لا تنتظره أمه، ثم يخرج بعدما تنطفئ الأنوار في الخارج وينصرف الجميع، ويذهب إلى ضفة النهر حيث يجلس في مكان قريب من فسحة الأرض، ويبقى هكذا مدة طويلة يسمع، من حين إلى آخر، في صمت الليل، صوت قفز ضفدعة أو سقوط قطعة من التراب في ماء النهر، أو نباح الكلبين تورامان وكورامان رداً على عواء ابن آوى من مكان بعيد، أو صوت طائر ليلي من فوق إحدى الأشجار على الضفة المقابلة ربما ينادي على أنثاه بفواصل منتظمة، من غير أن يعرف ما الذي ينتظره ولماذا، فهل كان ينتظر ظهورهما، مع شعور بالإثم والقلق، من بين الأشجار التي تبدو أكبر في ضوء القمر أو في ليالي آب الكثيرة النجوم؟ في الليالي الحارة التي لا تتحرك فيها نسمة صغيرة، كان أخوه الكبير وزوجته في غرفتهما التي لا تنفع النافذة المفتوحة التي يغطيها غربول معدني دقيق لمنع دخول الذباب في خفض حرارتها. يتمددان على السرير عاريين متعرقين، فيقترح أحدهما الذهاب إلى النهر لأن "الجميع ناموا إلى الآن"، فيلتفان بشرشفين ويخرجان بهدوء وصمت كي لا يوقظا أحداً، ويمشيان حافيي القدمين، ويداهما متشابكتين، ولا يكترثان للكتل الترابية التي تصدم أقدامهما بين شجرات العنب. يسرعان إلى ضفة النهر حيث الفسحة الرملية الصغيرة، فيقفزان في النهر أولاً، ثم يتمددان فوق الشرشف بجسديهما المبللين ويتعانقان، فهل كان يزحف مقترباً منهما إلى حيث يمكنه رؤيتهما بوضوح وسماع أنينهما وهمساتهما المتقطعة وزوجة أخيه تتأوه وتقول: "أووه لا تتركني"؟ أم كان يهرب إلى البرج؟ ألم يستدعِ في إحدى تلك الليالي تلك اليتيمة التي ترتجف يدها حين تقدم كأس ماء إلى السيد الصغير ويحمرّ وجهها حين ينظر إليها؟ لقد استدعى تلك اليتيمة المراهقة ذات ليلة من أيامه الأخيرة، فاكتشف أن رجولته لا تنفع إلا لامرأة واحدة عزيزة المنال. هز رأسه. إنها جميعاً تفسيرات، تفسيرات تخصه. طبعاً من المحتمل أن تكون أمه قد بالغت أو اختلقت بعض التفاصيل حين كانت تحكي ما شاهدت

أو سمعت من أحداث. أضف إلى ذلك أنها لم تأتِ على ذكر تلك العلاقة قط. "لم نعرف لماذا قتل نفسه في التاسعة عشرة. لم يحكِ لأي شخص، ولا كتب سطراً واحداً. فتشنا خزانته وصندوقه وكتبه ودفاتره بدقة، فلم نجد شيئاً". لو كان رستم بيه يشك في غرام أخيه الصغير بزوجته، فهل كان يمكن أن يطلق اسمه على ابنه الذي وُلد لاحقاً؟ وبعد عشر سنوات على موت فاروق أنجبا ولداً ثالثاً أسمياه فاروق أيضاً، فقال لهما بعض الناس إن هذا الاسم جالب للموت، فقال: "إن كان سيموت، فليمت وهو يحمل اسمه، وإن كان سيحيا، فليحيا حاملاً اسمه". التفسيرات والأسباب غير مهمة ولا مؤكدة. المهم هو أفعال المرء. ثمة شيء واحد مؤكد للإنسان هو الموت.

بدأ ضوء النهار ينتشر وراء الستارة السميكة. اتضحت الأشياء داخل الغرفة على الضوء المتسرب إليها من خلال الستارة: الحاجز المعدني للسرير، الطاولة، الكرسي، مدفأة الكاز، ثيابه المعلقة، المصباح المتدلي من السقف بلونها الأبيض. هل سيتمكن من تحمّل ثقله بعد ثمانية عشر يوماً؟ لماذا ينتظر، ماذا ينتظر؟ ارتج السرير. هل إذا حدث الأمر في الثامن والعشرين من نوفمبر سيكون للسخافة واللااتساق والتقطع معنى؟

نهض.

ارتدى ملابسه.

رتب السرير.

غسل وجهه. شعر لحيته لم يُحلق منذ ثلاثة أيام.

خمّر شاياً وشرب كأسين منه.

حين جلس وراء المنبر كانت الساعة ذات المنبه فوق الخزنة المعدنية تشير إلى الثامنة والربع. فتح دفتر السجل. لم يسجل فيه أسماء النزلاء المفترضين منذ الرابع من نوفمبر. الواقع أن إدارة فندق وإدارة مؤسسة أو منشأة كبيرة أو دولة هي الشيء نفسه. حين يبدأ المرء التعرف إلى نفسه وقدراته، وإدراك معنى المسؤولية الحقيقية، يتعثر ولا يستطيع التحمّل. لحسن الحظ أن من يديرون الدولة لا يعرفون هذا. وإلا لكانوا تسببوا في أضرار تفوق بكثير ما يمكن لمدير فندق أن يتسبب فيه. أغلق الدفتر. ما النفع، بعد الآن، من كتابة

هذا الكلام، أو كتابة بضعة أسطر وتركها؟ في مقبل الأيام، سيتم تثبيت كل شيء في وثيقة شرطة خالية من "سُئِلَ فأجاب" كأن كل شيء حدث في الرابع من نوفمبر. لو أن باحثاً مدققاً راجع الدفتر بعناية ورأى أن نزلاء الفندق، العام الماضي، بين الثلاثين من أكتوبر والثالث من نوفمبر هم أنفسهم الذين نزلوا في الغرف نفسها في الأيام نفسها من هذا العام، كيف يمكنه أن يفسر هذا الأمر؟ ابتسم. نهض ووضع دفتر العام الماضي في الصندوق تحت الدرج. أخذ مفتاح الغرفة 2 من درج المكتب. وهو يصعد الدرج رأى من النافذة الكبيرة عند منعطف الدرج الجبل يغطيه الغيم. من الغرفة التي أقام فيها الضابط المتقاعد أسبوعاً، أخذ حبل الغسيل الذي كان رسولا السيد البيطار قد أحضراه من أجل ربطه إلى السرير، وعاد إلى غرفته تحت. وضع علبة الحلاقة على الأرض وجر الطاولة إلى جانب السرير. رفعها بصعوبة وثبتها فوق السرير. خلع حذاءه وجوربيه. بعدما وضع سترته وبنطلونه وكنزته فوق مسند الكرسي، غير رأيه وعلقها على المشجب. صعد فوق السرير بملابسه الداخلية. تفقد وضع الطاولة، ثبتها، صعد فوقها ببطء محافظاً على توازنه، ثم استقام واقفاً. أمسك الأنبوب المعدني القصير من فوق المصباح بكلتا يديه وشده بقوة. صدر صوت تشقق وانفصلت قطعة خشب صغيرة من نقطة اتصال الأنبوب بالسقف، فتساقطت على وجهه وشعره ذرات غبار. قفز هابطاً على السرير ومنه إلى الأرض. كان المصباح المتدلي من طرف الأنبوب المعدني مائلاً. التقط الحبل المرمي فوق حاجز السرير المعدني ومضى. أخذ من غرفة المؤونة سكين تقطيع الخبز ومدق الهاون وصعد إلى الطابق الثاني. دخل الغرفة 2. دفع السرير من جهة القدمين أولاً، ثم من جهة الرأس، حتى قرّبَهُ من النافذة. وسط الغرفة راح يحفر في الأرض بالسكين ومدق الهاون، فاقتطع قطعةً من المشمع الذي يغطي الأرض. كان وجهه مصفراً ومتصلباً. تسارعت أنفاسه. أسند ظهره إلى السرير وظل وقتاً ينظر إلى الخشب المهترئ بألوانه الداكنة في البقعة التي أزال عنها المشمع. من يدري من أي مكان جاؤوا بهذا الخشب، قبل سنوات، وثبتوه هنا؟ ربما قطعته نساء حطّابات في جبل ما أو غابة ما. من جذوع الصنوبر الضخمة التي قطعها رجالهنّ بالبلطات وشذّبوها وقشروها

بالسكاكين، وتركت لتجف في الأفياء! من يدري من أي جبل؟ ربما من فسحةٍ وسط غابات صابونجو بلي في الوقت الذي يتثاءب فيه الرجال في الغابة أو خيَم الشعر، أو ينامون حتى في الأوقات الحارة بعد الظهر حين تتوقف الماعز عن الرعي وتنام في الأفياء المعتمة، في الوقت الذي تمسح فيه الحطابات بسراويلهن الثقيلة وستراتهن الصوفية المزخرفة وتنانيرهن بألوانها الصفراء والحمراء والسوداء، ورؤوسهن ملفوفة بأوشحة بيضاء مزينة بالخرز والبَرَق، العرق عن جباههن أحياناً وينادين: "يا زيناااب. أحضري ماءً!" فتخرج فتاة صغيرة من إحدى الخيم حاملة وعاء ماء مالت في مشيتها تحت ثقله، وعاء خشبياً بلا مقبض ومحفوراً بأدوات قطع طويلة من خشب العرعر أو الصنوبر وتتغلغل رائحة الشجرة في الماء البارد الذي يوضع فيه وله فوهة واسعة. الحطّابات ذوات الوجوه الملفوحة بالشمس يشربن من الوعاء وقطرات الماء تتساقط من ذقونهن إلى القمصان المشدودة بفعل انتفاخ صدورهن، ويواظبن بلا كلل على تشذيب هذا الخشب بتوافق رتيب وبسكاكين حادة... ثم ينقل الخشب على ظهور البغال أو البشر إلى الطريق عند سفح الجبل، حيث يُحمّل على عربات تجرها ثيران ضخمة. تتحرك ببطء وعجلاتها تصدر صريراً والثيران تشدّ رقابها الثخينة تحت ثقل النير حين يكون الطريق نزولاً، ويجري حثها على الحركة بمهماز ينخزها في أكفالها إلى أن تصل إلى البلدة وتفرغ حمولتها في عنابر الخشب في خان كورشونلو. وحين، في وقت لاحق، كان مالك آغا يبني البناء الجديد، اشترى ذلك الخشب بسعر زهيد بالمساومة وبشيء من التهديد، أو ربما جعل مُعلِّم البناء يشتريه ويحضره إلى هنا قبل مئة وخمسة وعشرين عاماً. انحنى وأخذ يحفر الخشب بالسكين. هذا الخشب الذي واظب العث على قضمه ليلاً منذ بني هذا البناء، وظل يتآكل بفعل احتكاك الأقدام والشحاطات والنعال والمكانس، قبل تغليفه بالمشمع، كاد أن يتعفن بفعل الماء لأن اليتيمات الشابات المقيمات في رعاية العائلة اللواتي كان الرجال يتحرشون بهن كلما وجدوا فرصة سانحة، ويلقون بهن فوق سرير في إحدى الغرف، بعضهن عنوةً وبعضهن طوعاً، وبعد استغلالهن مدة طويلة يمنحوهن جهازاً ويزوّجونهن لأحد أقاربهن الفقراء أو لشخص آخر، كنَّ يرفعنَ اللباد والسجاد

والفرشات مرةً كل أسبوع، ويحبين فوق ركبهن ليمسحن الأرضية الخشبية بخرق يبللنها في دلاء بجانبهن، ويفركنها بفراشٍ خاصة للخشب، وأردافهن تهتز. أخذ يضرب بسكين تقطيع الخبز ويضغط، من غير أن يستخدم مدق الهاون، فيتقطع الخشب وتتفتت ثقوب المسامير الصدئة. بعد قليل انحنى ونظر من خلال الثقب الذي فتحه. كان قريباً من الثقب الذي تخلف عن القطعة التي انفصلت عن خشب السقف الرقيق حين شد الأنبوب المعدني من تحت. وسّع الثقب بضربات من السكين بذلك الاتجاه. مرر أحد طرفي الحبل من الثقبين ودلّاه إلى الأسفل. مرر الطرف الآخر للحبل من فوق السرير وربطه بإحكام تحته في الوسط، بأكثر من عقدة. نهض واقفاً، وسحب السرير إلى مكانه الأول وسط الغرفة، بأن دفعه أولاً من جهة الرأس، وبعد ذلك من جهة القدمين. أمسك بالحبل الذي ضغط على اللحاف وشكّل فيه حفرةً وشده بقوة. إنه متين. من يدري من صنع هذا السرير ومتى أُحضِرَ إلى هنا. التقط السكين ومدق الهاون ومضى في طريقه إلى الأسفل. أعاد مقبض الهاون إلى الغرفة المجاورة للباب الخارجي، ووضع قليلاً من الزيت في صحن صغير. دخل غرفته، وأغلق بابها. كان الجو داخل الغرفة دافئاً. انزلق حبل الغسيل الطويل المتدلي من السقف من فوق الطاولة وتكوم فوق السرير. وضع الصحن والسكين فوق الطاولة، وصعد فوقها ببطء من غير أن يفقد توازنه. أمسك بالحبل وشده بكل ما يملك من قوة. كان مربوطاً بإحكام. قطع قطعةً من الحبل طويلة نسبياً بحزّها بالسكين. رمى قطعة الحبل والسكين معاً باتجاه الباب. ثنى طرف الحبل المتدلي من السقف وشكّل منه أنشوطة زيّتها. رمى صحن الزيت إلى طرف الرأس من السرير. لم ينكسر. كانت الطاولة تتأرجح بصورة طفيفة بين حين وآخر. أدخل رأسه في الأنشوطة، وسوّى وضعها. في تلك اللحظة بالذات سمع أصوات أبواق عدد من السيارات قادمة من الخارج. ثم انضمت إليها أصوات أخرى: زمامير، صفارات قطار، صفارات مصانع... راحت تطلق أصواتها بلا فواصل. ما هذا؟ هل هو طنين في أذنيه؟ أم نداء من الخارج، من الآخرين؟ عبس وجهه. ما زال على قيد الحياة، وزمام الأمور في يده. يمكنه أن يخرج رأسه من الأنشوطة، أن ينتظر مدة إضافية، أن

يهرب، أن بذهب إلى قسم الشرطة، أن يحرق البناء. هذه حريةٌ لا يمكن تحمّلها. دفع الطاولة بقدمه وهبط إلى الأسفل، في الفراغ، ثم توقف. عيناه مفتوحتان وفمه مفتوح، وساقاه مشدودتان. راح يتلوى ويتأرجح، ورفع ذراعيه محاولاً الإمساك بالحبل من فوق رأسه (ما الذي حدث؟ هل تذكر فجأةً عملاً نسيه؟ أم أدرك، في لحظاته الأخيرة، أن القيمة الوحيدة على وجه الأرض هي حماية الهدية الاستثنائية المعطاة له وهي الحياة؟ هل أدرك أن عليه البقاء على قيد الحياة والصمود رغم كل شيء؟ أم كان رد الفعل غير الواعي للجسد في مواجهة الموت؟) انحنى رأسه إلى الأمام. تدلت ذراعاه على جانبيه. تدفق سائل كثيف بلون العاج من الفتحة اليسرى لسرواله الداخلي، وامتد مختلطاً بشعر فخذه فوق الركبة، وسقط بقطرات متتالية على السرير. صدر صوت تقطّع الحبل المتأرجح في منطقة احتكاكه بالخشب...

# حول الكتاب

## نبذة

تنقلب حياة زبرجد الروتينية بوصول امرأة جميلة من العاصمة لقضاء ليلة في الفندق. ظهور المرأة الغامضة أثار حيرته، فباتت حياته انتظاراً لعودتها التي وعدت أن تكون في «الأسبوع المقبل»، لكن الأسابيع تتوالى وتخيلاته تتزايد حتى أخذ تدريجياً يفقد إدراكه للواقع.

هو سليل عائلة عثمانية كانت مرموقة في ما مضى، وآخر من بقي منها حياً، ومالك فندق «الوطن»، المؤسّسة المتهالكة بجوار محطة القطار. انطوائي في منتصف العمر، وحيدٌ حتى باتت حياته البسيطة قائمة على المهمات الإدارية.

رواية تدعو القارئ للاقتراب منها أكثر وأكثر. وإن كان آتيلغان قد حقّق شهرة أدبية كبيرة، فإنّ «سيّدة الفندق» جاءت لتكرّسه واحداً من كبار الحداثيين في تركيا.

## قيل في الكتاب

«تحفة مذهلة» ألبرتو مانغويل

## عن المؤلف

يوسف آتيلغان (1921-1989) كاتب وروائي تركي.